@ketab_n
Follow Me
3.4.2016

مذكرات آنا غريغوريفنا

زوجة الكاتب فيودور دستويفسكي

ترجمة: خيري الضامن

مذكرات آنا غريغوريفنا

زوجة الكاتب فيودور دستويفسكي

ترجمة: خيري الضامن





المؤلف: آنا غريغوريفنا دستويفسكي
عنوان الكتاب: مذكرات زوجة الكاتب دستويفسكي
ترجمة: خيري الضامن
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2015

Author: Anna Grigoryevna Dostoyevskaya
Title: Воспоминания
Translator: Khayri Al-Damen
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2015



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289



لم أفكر يوماً في كتابة المذكّرات، فأنا أفتقر إلى الموهبة الأدبية. وكنت طوال عمري مشغولة بإصدار مؤلّفات الراحل زوجي، فلا وقت عندي لأمور أخرى. إلّا أنّ صحّتي تدهورت في عام ١٩١٠ فعهدت إلى آخرين بمتابعة طبع مؤلّفاته، وانزويت بعيداً عن العاصمة بطرسبورغ أعيش في وحدة مطبقة. وكان لا بدّ أن أملأ فراغ أوقاتي، وإلا فلن يطول بي العمر، أعدت قراءة يوميّات زوجي ويوميّاتي، فوجدت فيها تفاصيل هامة تستحق أن يطلع عليها الناس. ثم أمضيت خمس سنوات ١٩١١ - ١٩١٦ في إعداد هذه المذكّرات.

لكنيسة القدّيس ألكسندر نيفسكي في بطرسبورغ منزلة خاصّة في نفسي. إذ أنّ مقبرتها تحنو على رفات المرحوم زوجي فيودور دستويفسكي، وإذا جاء أجلي فعسى أن أدفن جنبه، ثم أني ولدت في الثلاثين من آب ١٨٤٦ في عيد القديس نيفسكي بشقتنا الفخمة - ١١ حجرة - المطلة على ساحة كنيسته. كان المنزل يعجّ بالضيوف يتفرجون مبتهجين، من الطابق الثاني، على موكب الصلبان ومراسم العيد في الساحة. وكانت أمّي الجميلة للغاية، كما علمت بعد سنين، تقوم على خدمتهم فرحة مستبشرة. وفجأة جاءها المخاض. وبعد ساعة رأيت النور. استقبل الضيوف نبأ ميلادي بالتهليل وقرع الكؤوس، وتنبأوا لي بمستقبل باهر سعيد. فالقليلون من البشر يولدون

في مناسبات سارّة كهذه، بالفعل ورغم الصعاب والآلام التي عانيتها فيما بعد، أعتبر نفسي سعيدة للغاية، ولا أرى حياة أفضل مما عشت.

أمضيت طفولتي مع أخي وأختي في حياة هادئة متمتّعين بحنان أمّنا السويدية الأصل وأبينا الروسي الأوكراني المنشأ. وأنهيت الدراسة الابتدائية في مدرسة كل دروسها، ما عدا الدين، تُلقى بالألمانية، وأفادتني هذه اللّغة كثيراً حينما أمضيت مع زوجي عدة سنين في الخارج.

التحقت بمعهد التربية لكنّي لم أكمل الدراسة فيه. وفي عام ١٨٦٦ دخلت دورة الاختزال بإصرار من والدي الذي ربّما كان عرّافاً يقرأ الغيب، ويدري أنّي سألقى سعادتي بفضل هذه المهنة. فقد أبلغني أستاذي في الدورة أنّ الكاتب دستويفسكي يبحث عن شخص يجيد الاختزال ليملي عليه روايته الجديدة "المقامر" وهي تقريباً مائتي صفحة وبأجر قدره خمسون روبلاً. ورشّحني الأستاذ لهذه المهمّة. خفق قلبي فرحاً. كنت، شأن جميع فتيات الستينات، أنشد الاستقلال وأبحث عن عمل يجعلني أعتمد على نفسي، لا سيما وأن تلك فرصة نادرة للتعرّف على كاتب من أحبّ الكتّاب إلى والدي، وأنا شخصياً معجبة به للغاية، وكنت أبكي عندما أقرأ روايته "مذكرات من بيت الأموات".

تصوّرته شيخاً بعمر والدي، عبوساً كئيباً كما يتصوّره الكثيرون، وجئت إلى الموعد المحدَّد.

كان يقيم في شقة متواضعة بعمارة ضخمة يسكنها تجّار وباعة وحرفيون. وذكّرتني في الحال بالعمارة التي يقيم فيها راسكولنيكوف بطل "الجريمة والعقاب". مكتبه واسع بنافذتين مضيئتين أيام الصحو،



لكن جوّه فيما عدا ذلك حالك ساكن يثقل على النفس. وعندما رأيته لأول مرة خيّل إليّ أنّه عجوز بالفعل، ولكن ما إن تحدّث معي حتى تضاءلت سنّه وبدا لي في الخامسة والثلاثين. كان متوسط البنية معتدل القامة، شعره كستنائي فاتح أقرب إلى الأشقر، مدهون ومصفوف بأناقة. وجهه شاحب كوجوه المرضى. يرتدي سترة من الجوخ الأزرق تكاد تكون بالية، إلّا أنّ قميصه ناصع البياض بياقة منشأة وردنين بارزين. ولكن ما أدهشني فيه هو عيناه، لاختلافهما الواضح. إحداهما بنية، وفي الأخرى بؤبؤ متسع يحتل فضاء العين ويأتي على معظم القزحية، مما يجعل نظراته لغزاً من الألغاز. في نوبة مبكرة من الصرع سقط دستويفسكي وأدمى عينه اليمنى فوصف له الطبيب علاجاً بالأتروبين أدى الافراط في استخدامه إلى توسع البؤبؤ لهذا الحد.

في أوّل لقاء عمل معه حدّثني، وهو يدخّن السيجارة تلو السيجارة، عن حكم الإعدام الذي صدر بحقّه مع جماعة بتروشيفسكي[1] بتهمة

---

(١) تعرف دستويفسكي على مفكر ثوري روسي، اسمه ميخائيل بتروشيفسكي، وأخذ يتردد على حلقته الثورية منذ عام ١٨٤٧م، كانت الحلقة تناقش الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في روسيا، وكان دستويفسكي عضواً نشيطاً فيها، ودعا

التآمر على النظام في ٢٢ كانون الأول ١٨٤٩:

– كنت واقفاً في الساحة أراقب بفزع ترتيبات الإعدام الذي كان سينفّذ بعد خمس دقائق. كلّنا في قمصان الموت موزّعين على وجبات من ثلاثة محكومين. وكنت الثامن في التعداد، ضمن الوجبة الثالثة. أوثقوا الثلاثة إلى الأعمدة. وبعد دقيقتين يطلق الرصاص على أول وجبتين ومن ثمّ ويأتي دوري... يا إلهي، ما أشدّ رغبتي في

إلى الثورة، وكان برنامج الحلقة ينادي بإلغاء نظام القن وبتطبيق المساواة والإخاء. تأثر أعضاء الحلقة بأفكار المفكر الفرنسي فوريه، وبأفكار سان سيمون اللذين كانا يؤمنان أن الإنسان طيب بطبيعته، إلا أن المجتمع يفسده. وحاول أعضاء الحلقة الحصول على مطبعة سرية.

في ساعة مبكرة من صباح ٢٣ أبريل ١٨٤٩م وبأمر شخصي من القيصر نيكولاي الأول ألقى البوليس القبض على الكاتب وأودع في قلعة بتروبافلوفسكي ومعه مجموعة كبيرة من أعضاء حلقة بتروشيفسكي. إذ قام أحد أعضائها بالوشاية، وبينهم دستويفسكي، الذي أمضى تسعة أشهر في زنزانة منفردة، في قلعة بطرس وبولس في مدينة بطرسبرج.

حكم على الكاتب بالإعدام، واقتيد دستويفسكي في ٢٢ كانون الأول عام ١٨٤٩م مع أعضاء الحلقة إلى ساحة الإعدام المطوقة بالقوات المسلحة، وألبسوا قمصاناً طويلة بيضاء على قرع الطبول، وقرئ عليهم الحكم بالإعدام رمياً بالرصاص، وأوثق ثلاثة منهم إلى أعمدة خشبية مغروزة في الأرض، وكان دستويفسكي ينتظر دوره في المجموعة الثلاثية الثانية. ووقف أمام كل منهم مجموعة من الجنود شاهرين بنادقهم المحشوة بالرصاص، وظل المحكومون ينتظرون تنفيذ الحكم مدة نصف ساعة في صقيع بلغ عشر درجات تحت الصفر، ثم جاءت عربة، وقُرئ على المحكومين قرار القيصر بتخفيف الحكم من الإعدام إلى حكم بالأعمال الشاقة، وكانت هذه العملية تمثيلية مدبّرة من القيصر نفسه، لكي يفقدهم عقولهم، ويظهر بالوقت ذاته بمظهر الرحيم الغفور، ولقد فقد أحدهم عقله بالفعل، وطلب أحدهم في أثناء الانتظار إطلاق النار، لأن انتظار الموت أصعب من الموت نفسه، وشعر دستويفسكي بعد استبدال القرار بالفرح، وكأن حياة جديدة وهبت له، وكأنه ولد من جديد، حتى وصف الأحداث المذكورة في رائعته رواية "الأبله".



الحياة[٢]. تذكرت كل ماضي الذي هدرته وأسأت استخدامه، فرغبت في الحياة من جديد وفي تحقيق الكثير ممّا كنت أنوي تحقيقه لأعيش عمراً طويلاً... وفي اللحظة الأخيرة أعلن وقف التّنفيذ. حلّوا وثاق رفاقي وقرأوا حكماً جديداً على كلّ منّا. وكانت من نصيبي هذه المرّة الأشغال الشاقة أربع سنين. فما أعظم سعادتي. أمضيت باقي الأيام قبيل الرحيل إلى المنفى أغنّي وأترنَّم في الثكنة تلك يوم. ما أشدّ فرحتي بحياة وهبت إليّ من جديد..

اقشعرّ بدني من حديثه. وأدهشني بصراحته. فهذا الرجل الذي تبدو عليه مظاهر الانطوائية القاتمة يتحدّث عن تفاصيل حياته بصدق وإخلاص مع فتاة غريرة يراها لأوّل مرة. ولم تتبدّد حيرتي من هذا التناقص إلا بعد أن اطلعت على أوضاعه العائلية وأدركت سبب

(٢) تسأل راسكولينكوف وهو يستأنف سيره: ترى أين قرأت أن رجلاً محكوماً عليه بالإعدام قد قام أو تخيّل قبل اعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش في مكان ما، على قمة، فوق صخرة، بموضع لا تزيد مساحته على موطئ قدم، وكان كل ما حوله هوة سحيقة، خضما كبيراً، ظلمات أبدية، عزلة خالدة، زوابع لا تنقطع، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطئ القدم هذا مدى الحياة، بل ألف سنة، بل أبد الدهر، لظلّ مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيشة على أن يموت فوراً، أن يعيش فحسب، أن يعيش! أن يعيش أية عيشة، ولكن أين يعيش.. نعم، أين قرأت هذا الكلام! رباه، ما أصدق هذا الكلام».

هذه التأمّلات التي تمرّ بذهن رجل محكوم عليه بالإعدام، من رواية الجريمة والعقاب، احتفظ بها دستويفسكي من الدقائق التي عاشها قرب المقصلة قبل تنفيذ حكم الإعدام بحقه ثم العفو المهزلة!

بحثه عن أناس يضع ثقته فيهم ويفضي إليهم بما يعتمل في نفسه. كان يشعر بوحدة قاتلة بعد وفاة زوجته الأولى ماريا وشقيقه الأكبر ميخائيل ويعيش محاصراً من قبل الخصوم والحسّاد والدائنين، كانت انطباعات اليوم الأول مرهقة للغاية. عدت إلى منزلي في ساعة متأخرة من الليل وأنا في أقصى درجات الإعياء بحد أن أملي على فيودور دستويفسكي أولى صفحات "المقامر". ولأول مرة في حياتي أرى إنساناً ذكياً وطيب القلب إلى هذا الحد، لكنه تعيس بنفس القدر وكان الجميع أشاحوا بوجوههم عنه. فتألمت وشعرت بالإشفاق عليه.

تأخرت عليه قليلاً في اليوم التالي. فوجدته قلقاً للغاية. قال لي إنه ملزم بإنهاء الرواية في غضون شهر، فإنّ دائني مجلة "الوقت" التي كان يصدرها شقيقه ميخائيل وتعهّد هو بتسديد ديونها بعد وفاته هددوه بمصادرة ممتلكاته وزجه في السجن. كانت الديون المستحقة حسب الكمبيالات ثلاثة آلاف روبل. وبهذا المبلغ باع دستويفسكي إلى ناشر اسمه ستيلوفسكي حقوق طبع مؤلفاته بثلاثة مجلدات والتزم فضلاً عن ذلك بتأليف رواية جديدة يدخل ريعها ضمن المبلغ المذكور. وكان ستيلوفسكي أقدم على خطوة غادرة، حيث اشترى قبل ذلك بأبخس الأثمان كمبيالات ديون ميخائيل. فعاد إليه المبلغ الذي دفعه إلى دستويفسكي. وها هو، فوق ذلك، يشترط تسليم الرواية الجديدة في مدّة غير معقولة، وإلا ستعود إليه، حسب العقد الموقّع مع دستويفسكي، حقوق نشر مؤلفاته لأجل غير مسمى. وكان يأمل بالطبع أن يعجز الكاتب المريض عن الإيفاء بتعهده، لاسيما وأنه كان في عام ١٨٦٦ ذاته على وشك إنهاء "الجريمة والعقاب".

صرت أتردّد عليه يومياً في الثانية عشرة، فيملي علي فصول "المقامر"

حتى الرابعة، على ثلاث وجبات بنصف ساعة أو أكثر. وفيما بين ذلك نتحدّث في شتّى الأمور. وبالتدريج تحسّن مزاجه وتعوّد على الإملاء، فهو يمارسه لأول مرة. وكان يسره بخاصة الرد إلى تساؤلاتي عن الأدباء الروس. فهو، مثلاً، يعتبر نيكولاي نكراسوف صديق الطفولة ويقدر موهبته الشعرية كثيراً. كما يقدر أبولون مايكوف كشاعر موهوب وإنسان ذكي ومثال للطيبة. ويرى أن ايفان تورغينيف روائي من الدرجة الأولى، لكنه يأسف لأن هذا الأخير أمضى وقتاً طويلاً في الخارج ولم يعد يتفهَّم طبيعة روسيا والروس كما ينبغي لكاتب كبير مثله – كانت العلاقة بين دوستويفسكي، تورغينيف معقّدة يغلب عليها الجفاء والقطيعة –.

وعلى ذكر الخارج أبلغني ذات مرّة، وكان في حالة من اليأس والقنوط، أنه مقدم على اختيار أحد طرق ثلاثة، فإما الرحيل إلى القدس ليقيم مع الطائفة الأرثوذكسية الروسية هناك ربما لآخر العمر، وإما الهجرة إلى أوروبا ليغرق في القمار الذي أولع به، وإما الزواج للمرة الثانية لعله يجد السعادة والفرحة في أحضان العائلة. وكانت كفة القدس هي الراجحة من حيث جدية نوايا دستويفسكي، فقد عثرت بين أوراقه فيما بعد على رسالة مؤرخة في ١٨٦٣/٦/٣ من رئيس اتحاد الأدباء الروس آنذاك إلى القنصل الروسي في القسطنطينية لتسهيل أمر رحيله، وسألني رأيي في هذا الخيار الذي كان سيغير مجرى حياته الفاشلة تغييراً جذرياً. تحيّرت في الجواب. بدت لي نيته في الرحيل إلى القدس العثمانية أو إلى كازينوهات أوروبا غامضة وخيالية ولعلمي بوجود عوائل سعيدة بين معارفي وأقربائي نصحته أن يبحث عن أمنيته المنشودة في الأسرة. فعلّق قائلاً:

- وهل تتصوّرين بأنّ امرأة ستقبلني زوجاً؟ وأية امرأة أختار؟ راجحة العقل أم طيبة القلب؟

- راجحة العقل طبعاً، كي تناسبك.

- كلا، أفضل امرأة طيّبة القلب تشفق عليّ وتحبّني.

واصلنا العمل في "المقامر" حتى غدا واضحاً في آخر الأسبوع الثالث أننا سنتمكن من تسليم الرواية في الموعد. وصرنا كلانا نشاطر أبطالها حياتهم. فكان لي بينهم، كما لدستويفسكي، شخوص أحبهم وآخرون أنفر منهم. أشفقت على الجدّة التي خسرت أموالها وعلى مستر استلي، لكني امتعضت من بولينا ألكسندروفنا ومن البطل الرئيسي أليكسي ايفانوفيتش، فيما التزم دستويفسكي جانب هذا الأخير وأكد أنه شخصياً جرب الكثير من مشاعر البطل وانطباعاته، أنجز دستويفسكي روايته في ٢٦ يوماً وسلّمها إلى الشرطة، مقابل ايصال، ليتفادى غدر الناشر الماكر. وقبضت أجرتي، لكن علاقتي بالكاتب لم تنقطع. فقد أبدى رغبة في زيارة عائلتي. ودعوته إلى بيتي بعد أيام. أعجبت به أمي كل الإعجاب بعد أن كانت في البداية متهيبة مرتبكة لزيارة الكاتب "الشهير" وهو، والحق يقال، جذاب للغاية ويسحر، كما لاحظت فيما بعد، حتى خصومه الذين لا يرتاحون إليه عادة، عرض عليّ أن نواصل العمل في الجزء الأخير من "الجريمة والعقاب" هذه المرة. وكنت متردّدة بعض الشيء، لكني وافقت عندما رأيته مصرّاً.

بعد ثلاثة أيام زارنا من جديد دون سابق إنذار. وطلب أن آتي إليه لتدقيق شروط العمل. ولكني حينما جئته، في الثامن من تشرين الثاني ١٨٦٦، فوجئت به يصارحني بحبه ويرجوني أن أقبل به زوجاً...

كان منفعلاً ومبتهجاً حتى بدا لي في سن الشباب. سألته عن سبب ابتهاجه فأجاب أنه رأى حلماً في المنام. فقهقهت، لكنه أوقفني قائلاً: "لا تسخري مني. أنا أؤمن بالأحلام. وأحلامي تتحقق دوماً. حينما أرى المرحوم شقيقي ميخائيل أو يحضرني طيف والدي في المنام لا بد أن تحل بي مصيبة. لكني هذه المرّة رأيت جوهرة برّاقة بين مخطوطاتي في هذا الصندوق، ثم توالت أحلام أخرى ولا أدري أين اختفت الجوهرة". فقلت له: "الأحلام تفسر عادة بالمقلوب"، وأسفت لما قلت. فقد امتقع وجهه وسأل: "تعتقدين أنني لن ألقى السعادة و أن ذلك مجرد أمل واه؟". وأجبته: "والله لا أدري. ثم أنني لا أصدق الأحلام". واختفى كل أثر للابتهاج. ودهشت لسرعة تبدّل مزاجه. ثم انتقل بالحديث إلى رواية يخطط لكتابتها، فتحسّن حاله رأساً وأخبرني أنه لم يتوصل بعد إلى خاتمة جيدة. ففي الرواية فتاة، وهو غير ملم بارتعاشات نفوس الفتيات. ورجاني أن أساعده. عرض عليّ بالخطوط العامة حبكة الرواية، فأدركت أنه يقص علي مشاهد من حياته تلقي الأضواء على طفولته القاسية وعلاقته بالمرحومة زوجته وأقربائه والملابسات الأليمة التي شغلت الفنان عن عمله المحبّب عدة سنين. وكان المفروض أن تنتهي الرواية بعودة الفنان إلى الحياة من خلال حب يشفيه وينقذه من وحدته وشيخوخته المبكرة. ولم يخطر ببالي ساعتها أنني كنت المقصودة ببطلة الرواية المزعومة. لكنّه باغتني مرتبكاً:

– ما رأيك؟ هل تستطيع فتاة شابة أن تحبّ فناناً عجوزاً مريضاً مثقلاً بالديون؟.. لنفترض أن الفنان هو أنا، البطلة أنتِ، فما رأيك؟

– لو كان الأمر كذلك فعلاً لأجبتك: أحبك وسأظل على حبّي

مدى العمر. وبعد ساعة أخذ فيودور دستويفسكي يخطّط لمستقبلنا ويسألني رأيي في التفاصيل. وكنت عاجزة عن الخوض فيها من فرط السعادة. اتفقنا على كتمان سر الخطبة مؤقتاً إلى أن تنجلي الملابسات.

وعندما ودّعني هتف مبتهجاً: وجدت الجوهرة أخيراً.

وأجبته: عسى ألا تكون حجراً.

أظن أن أمي فرحت لنبأ خطبتي. فهي تدرك بالطبع أنّي سأعاني الكثير فيما لو تزوجت من رجلٍ مصاب بداء عضال ويفتقر إلى المال. لكنّها لم تعمد إلى إقناعي بالعدول عن الزواج، كما فعل آخرون بعدها. وللحقيقة أقول أن دستويفسكي أبدى طوال ١٤ عاماً من حياتنا الزوجية منتهى الطيبة في معاملة والدتي، وبعد أسبوع افتضح سر الخطبة على غير المتوقع. أفضى به دستويفسكي نفسه إلى حوذيه في لحظة ابتهاج الذي بدوره أبلغ هذا الخبر إلى الخادمة التي نقلته في الحال إلى بافل، ابن دستويفسكي المتبنّى. غضب هذا على "أبيه العجوز"، فكيف يجوز له أن يبدأ الحياة من جديد دون أن يستشير "ابنه"؟. وانسحب غضب الفتى عليّ طبعاً، إلا أن موقفه مني غدا أكثر ليونة بمرور الزمن. رغبت في معرفة كل شيء عن دستويفسكي. وما كانت أسئلتي المتلاحقة لتضايقه. حدّثني عن حبه لأمه وأخيه المرحوم ميخائيل وأخته الكبرى فاريا، لكنّه لم يبدِ حماساً في الكلام عن أخوته وأخواته الأصغر. واستغربت من غياب كل ما يشير إلى غرامه بامرأة ما في شبابه. وأعتقد أنّ السبب هو تفرّغه المبكر للكتابة. فالنشاط الثقافي أزاح حياته الشخصية إلى المرتبة الثانية، ثم أنه تورط في عمل سياسي دفع ثمنه غاليا وصرفه عن الاهتمام بأموره الخاصة، لم يكن يميل إلى تذكر المرحومة زوجته، لكنّه يذكر خطيبته الأولى آنا كورفين

بكلّ خير، ويأسف على فسخ خطبتهما لاختلاف الطباع والآراء كما يقول. وظلّ حتى النهاية يحتفظ بعلاقات طيّبة معها. وتعرّفت عليها أنا أيضاً بعد ست سنوات من زواجي فربطت بيننا أواصر صداقة.

سألته مرّة: لِمَ لَمْ تتقدّم إليّ بخطبة عاديّة كما يفعل الجميع، وجئت بمقدمات طويلة عريضة بشكل "رواية" مختلقة؟ وأجاب:

– الحقيقة كنت يائساً، وكنت أعتبر الزواج منك تهوّراً وجنوناً. فالتفاوت بيننا رهيب. أنا شيخ عجوز تقريباً وأنت في عمر الطفولة وفارق السن بيننا ربع قرن. أنا مريض كئيب سريع الإنفعال، وأنت مفعمة بالحيوية والمرح. أنا إنسان مستهلك أكلت عمري وتجرّعت المصائب والأهوال. وأنتِ تعيشين حياة هانئة والمستقبل كله أمامك. ثم أني فقير ومكبل بالديون. فماذا أنتظر؟

– إنك تبالغ يا عزيزي. فالتفاوت بيننا ليس فيما تقول. التفاوت الحقيقي أنك اخترت فتاة متخلفة لن تقترب شبراً من مستواك الثقافي في يوم من الأيام.

– كنت متردّداً متهيباً في الخطبة. أخشى ما أخشاه أن أغدو مثاراً للسخرية فيما لو رفضت. فكيف يحق لرجل كهل قبيح مثلي أن يطلب يد فتاة شابة مثلك؟ كنت أتوقّع أن تردّي عليّ بأنك تحبين شخصاً آخر. ولو جاء جوابك على هذا النحو لكان ضربة قاسية لي، فأنا أعاني من وحدة نفسانية خانقة وكنت أريد أن أحتفظ بصداقتك على الأقل. ولذا أردت أن أستطلع رأيك في البداية، من خلال مخطط رواية وهمية. كان أسهل علي عندئذ أن أتحمل رفضك. إذ سيكون موجها ضد بطل الرواية وليس ضدي شخصيا. وعلى أية حال أرى أن تلك الرواية المختلقة أفضل رواياتي على الإطلاق. فقد عادت علي بالثمار رأساً.

تلقى دستويفسكي رسالة من مجلة "البشير الروسي" الصادرة في موسكو تطالبه بالجزء الثالث من "الجريمة والعقاب". وكنا نسينا هذه الرواية فيما نحن فيه من أفراح. فعاد دستويفسكي يملي عليّ بقية الرواية بهمّة ونشاط. تحسن مزاجه، فتحسنت صحته، حتى أن الشهور الثلاثة التي سبقت زفافنا لم تشهد سوى ثلاث أو أربع نوبات من الصرع[٣]، مما جعلني آمل بأنّ هذا الداء اللعين سيخف فيما لو توافرت لزوجي حياة هادئة سعيدة. وهذا ما حدث بالفعل.

فالنوبات التي كانت تنتابه كل أسبوع تقريباً لم تعد تتكرّر في السنوات التالية إلا لماماً. ولم يكن الشفاء من هذا المرض بالأمر الممكن، لا سيما وأن دستويفسكي تهاون في العلاج، بل وأهمله لاقتناعه بعدم جدواه. إلّا أن تقلّص النوبات كان بالنسبة إلينا هبة عظيمة خلّصته من الرواسب النفسانيّة الثقيلة بعد كل نوبة، وخلصتني من الدموع والآلام التي تكويني عندما يقع فريسة للصرع بحضوري. كانت نياط قلبي تتمزّق وأنا أسمعه يزعق بصوت لا يشبه أصوات البشر ثم أراه يتلوّى ويخرّ على الأرض متشنجاً. وعندما ألفيته لأول مرة يتضور ألما ويصرخ ويئن ساعات بلسان متلعثم ووجه ملتو وعينين جامدتين ظننته مجنوناً مختل العقل. لكنه، والحمد لله، كان يغفو طويلاً ويستيقظ بعد ذلك سوياً كالآخرين، لولا الكآبة التي تظل تلازمه أكثر من أسبوع وكأنه فقد أعز ما لديه في الدنيا على حد تعبيره.

---

(٣) دستويفسكي كان مصاب بالصرع، وأول نوبة أصابته عندما كان عمره ٩ سنوات. نوبات الصرع كانت تصيبه على فترات متفرقة في حياته، ويعتقد أن خبرات دستويفسكي أدت إلى تشكيل الأسس في وصفه لصرع الأمير «مشيكين» في روايته الخالدة («الأبله» The Idiot)، بالإضافة إلى آخرون.

جاءني ذات يوم، في عز الشتاء، يرتجف من البرد بمعطف خريفي، فأسرعت إليه بالشاي الساخن وسألته مستغربة: أين معطف الفرو؟ فأجابني متردّداً: قيل لي أن الجو دافئ. ثم أضاف موضحاً أن أقرب أقربائه، "ابنه" بافل وأخاه الأصغر نيكولاي وكذلك إميليا زوجة المرحوم ميخائيل، طلبوا منه نقوداً لحاجة ماسة وعاجلة. فاضطر أن يرهن معطفه الفرائي. ثارت ثائرتي ورحت أبكي وأزعق: كيف يقول أقرباؤك القساة أنّ الجو دافئ فهو لا يتناول قهوة الصباح بدون قشدة.، قبيل الظهر يأكل بافل طيراً مشوياً، فتقدّم لنا الخادمة على الغداء الطيرين المتبقّيين فلا يكفياننا نحن الثلاثة. يختفي الثقاب أحياناً مع أنّ علباً كثيرة منه كانت في البيت أمس. وكذا يحدث لأقلام الرصاص المبرية. وتثور ثائرة دستويفسكي عندما يريد التدخين فيصرخ في وجه فيدوسيا. ويهز بافل كتفيه: "انظر يا بابا، لم تحدث أشياء كهذه عندما كنا لوحدنا".. والخادمة المسكينة تخشى غضب دستويفسكي حتى الموت، والأصح أنها تخشى أن تصيبه نوبة مفزعة بسبب ذلك، كما حدث له مراراً بحضورها، كانت متزوجة من موظف سكير توفي وتركها وأطفالها الثلاثة في فقر مدقع. بلغ خبرها مسامع دستويفسكي فأخذها خادمة مع صغارها. وحدّثتني، والدموع تترقرق في عينيها، عن طيبته البالغة وكيف كان يدخل على الأطفال ليلاً عندما يسمع سعالا أو بكاء فيغطي الواحد منهم ويهدهده، وإذا لم يفلح في ذلك يوقظها لتسهر على المريض.

في الأسبوع الخامس بعد عقد القران بدأ شهر العسل فعلاً. فالمتاعب والإهانات التي تعرّضت لها خلال هذه الفترة من أقارب دستويفسكي حطّمت أعصابي لدرجة جعلتني أفكر في الطلاق. صارحت زوجي بتلك المتاعب، وما كان يعرف بالإهانات من جانب

"ابنه" خصوصاً، فلامني على سكوتي وبدّد شكوكي ومخاوفي. وشدّ العزم على السفر إلى موسكو ومن ثم، ربما، إلى الخارج، إذا تمكّن من إقناع السيد كاتكوف، رئيس تحرير "البشير"، أن يمنحه سلفة جديدة، استقبلتني فيرا، شقيقة زوجي، في موسكو خير استقبال. إلا أن أبناءها السبعة عاملوني ببرود. أدهشني موقفهم وأحزنني، حتى علمت سرّه فيما بعد. كانوا يحبون عمّتهم إيلينا المتزوّجة من رجل شارف على الموت ويريدون لها بعد وفاته أن تتزوج من خالهم فيودور دستويفسكي، ليقيم في موسكو دائماً، فهم يحبونه أيضاً حباً جماً، ولكي أخفّف من الموقف العدائي الذي قوبلت به في بيت عديلتي أبديت متعمّدة بعض الاهتمام بشاب من زوّار البيت لأعيد الاعتبار لنفسي. لكن دستويفسكي لم يفهمني. وتأكد لي أنه يغار عليّ كثيراً، فرأيت ألا أتمادى في الكلام والمرح مع أي غريب بحضوره. فالغيرة تؤذيه، إذ خرج عن طوره ساعتها وانهال عليّ بتقريع شديد حينما عدنا إلى الفندق الذي نزلنا فيه. وفيما بعد تكرّرت "نوبات" الغيرة حتى في الخارج. ولم أفلح في اجتثاث هذه الصفة الذميمة في طباع دستويفسكي إلا بالتواضع في المظهر والملبس والتحفّظ الشديد بحضور الرجال، حتى إن رفيقاتي أكدن لي عندما عدنا إلى الوطن أنني "شخت" سريعاً في الغربة. ولم يكن ذلك ليسيئني، فزوجي يحبني على ما أنا عليه.

أمضينا في موسكو أياماً لا تنسى. كنّا كل صباح نتفرّج على أبرز معالمها ونتفقّد كنائس الكرملين وقصوره. وزرنا قبر المرحومة ماريا والدة زوجي التي كان يقدّس ذكراها – ولد فيودور دوستويفسكي في موسكو في الثلاثين من تشرين الأول ١٨٢١ . وكنا نتناول طعام الغداء كل يوم تقريباً في منزل عديلتي. تحسنت علاقتي مع أبنائها وصرت

ألازم زوجي طول الوقت حتى تبدد الشعور بالغربة والنفور الذي كاد يستولي علي تجاهه في الأسابيع الأخيرة من حياتنا في بطرسبورغ. وعاد إليّ مرحي وحبوري. وأكد لي دستويفسكي أنه استعاد هنا في موسكو، "زوجته آنا" بعد أن كاد يفقدها مؤخراً في بطرسبورغ وأن "شهر العسل" الحقيقي قد بدأ بالنسبة إليه.

عدنا من موسكو إلى بطرسبورغ بعد أن وافقت مجلة "البشير" على منح دستويفسكي سلفة جديدة بألف روبل. أعلن زوجي عن نيتنا في السفر إلى الخارج. فواجه جميع أقربائه هذا النبأ بالاستنكار. وطالبوه أن يترك لهم، فيما لو سافرنا بالفعل، نقوداً تكفي لعدّة شهور. ويعني ذلك بالطبع إلغاء الرحلة أصلاً، كنا نأمل أن يرتاح دستويفسكي في الخارج شهراً ليشرع في كتابة بحثه المطوّل عن الناقد "بيلينسكي". لكن إميليا زوجة أخيه أصرّت أن يترك لها ولأولادها خمسمائة روبل. و لا بد من اعتماد مائتي روبل لإعالة "ابنه" بافل في فترة غيابنا. لم يفلح دستويفسكي في إقناع إميليا بتأجيل الدفع، وما كان بوسعه أن يمتنع عن مساعدة عائلة المرحوم أخيه. فاستقر رأيه، آسفاً، على تأجيل السفر. ورأيت أن أنقذ الموقف بالتضحية بجهاز العرس، رغم فظاعة هذه الخطوة. لم تعترض أمي على قراري وقالت: "يؤسفني أن تجري الأمور بهذه الصورة، لكنكما إن لم توثقا أواصر الزواج الآن لن تحافظا عليه أبداً". وكان علي أن أقنع زوجي بضرورة رهن الأثاث والحلي. وعندما فاتحته بالموضوع، وبعد أن صلينا معاً في كنيسة المعراج، رفض رفضاً باتاً. رجوته أن ينقذ حبّنا ويمنحني شهرين أو ثلاثة من حياة هادئة سعيدة، وإلا سيفسد كل شيء، وانهمرت دموعي على يده فوافق على السفر مكرهاً، وكانت ثمة إشكالات بخصوص جواز السفر، إذ أن دستويفسكي محكوم سياسي تحت رقابة الشرطة

ولا بد له من الحصول على ترخيص من الحاكم العسكري إضافة إلى الإجراءات الرسمية المعتادة. وساعده في ذلك موظف من المعجبين بأدبه. وارتحلنا لنقضي في الخارج ثلاثة شهور، لكنّنا لم نعد إلى روسيا إلا بعد أربع سنين!



أمضينا في برلين يومين في جو مطار غائم، ثم ارتحلنا إلى درسدن. قررنا أن نبقى فيها أكثر من شهر حتى يتمكّن دستويفسكي من إنجاز بحثه المعقد في النقد الأدبي. كان يحب درسدن أساساً بسبب معرضها الشهير وحدائقها الزاهرة. وكان يقف الساعات الطوال متأثراً منفعلاً أمام عذراء السيستين[٤]

---

(٤) هذه اللوحة الفنية هي أكثر الأعمال الفنية المذكورة في الجريمة والعقاب، تعتبر لوحة «عذراء كنيسة سيستين» واحدة من أعظم الأعمال الفنية في العالم ومن أكثرها نقاشاً واحتفاء. وقد ظلت هذه اللوحة على الدوام رمزاً مميزاً للتطور الذي شهدته الفنون بعامة خلال عصر النهضة الإيطالي. بل إن شعبيتها الكاسحة دفعت بعض النقاد إلى تشبيهها بلوحة الموناليزا لدافنشي. أحد عناصر اللوحة التي كانت مثاراً للكثير من النقاش هو التعابير الغامضة التي رسمها رافائيل على وجه العذراء وطفلها وحاول النقاد ودارسو الفن فكها ومعرفة كنهها. وقد حاول الكثير من المؤرخين والفلاسفة عبر العصور تفسير المعاني والدلالات التي أراد الفنان تضمينها في هذه اللوحة، ومن بين هؤلاء غوته وشوبنهاور. شوبنهاور مثلا، تحدث عن ملامح الخوف التي ترتسم على وجه وعيني الصبي، بينما تساءل آخرون عن مغزى إظهار العذراء في حالة حيرة وارتباك. في اللوحة تقف الشخصيات «العذراء وطفلها والقديس والقديسة والملاكان الصغيران إلى أسفل» على مقعد من الغيم تؤطره ستارتان منفتحتان إلى أعلى.

وتبدو العذراء كما لو أنها هابطة من السماء فيما يتوجه القديس إلى اليسار بنظره إلى

التي يعتبرها أسمى مظهر لعبقرية الإنسان. "ورد ذكر عذراء رافائيل، على سبيل المقارنة والتشبيه، في العديد من مؤلفات دوستويفسكي، وبخاصة الجريمة والعقاب". وفيما بعد، في فلورنسا، أعجب بلوحة رافائيل "يوحنا المعمدان في الصحراء"، وفي بازل كانت له وقفة طويلة مؤثرة أمام لوحة هانز هولبن(٥) "يسوع ميتاً" التي تركت في

المسيح الصغير، بينما توجه القديسة إلى اليمين نظراتها الحانية إلى الملاكين الصغيرين الظاهرين في أسفل الصورة. ومما لا شك فيه أن أشهر جزء في هذه اللوحة الفريدة هو صورة الملاكين الصغيرين إلى الأسفل، إذ طبعت صورتهما على ملايين البوسترات والصور التذكارية. لوحة "عذراء سيستين" كان مقدراً لها على الأرجح أن تزين قبر البابا يوليوس الثاني، وقد عثر عليها في ما بعد في أحد الأديرة لتجد طريقها بعد ذلك إلى موسكو بعد الحرب العالمية الثانية، قبل أن تنقل إلى متحف مدينة درسدن الألمانية حيث ظلت هناك حتى اليوم. يذكر أن هذه اللوحة أصبحت رمزاً للأمومة المثالية. كما أن خطوطها المنحنية والعريضة نزولا وصعوداً، وتوازن الكتل فيها وتوزيع الألوان الدقيق ما بين الذهبي والأخضر، والبني والأزرق، كل ذلك يعطي الناظر إليها شعورا بالسلام والطمأنينة. تلقى رافائيل تعليمه على يد أبيه، الفنان هو الآخر، والذي لمس في ابنه الاهتمام والموهبة. وفي زمن قياسي أصبح فناناً موهوباً وتجلت عبقريته وهو ما يزال في سن السابعة عشرة. انتقل الفنان بعد ذلك إلى فلورنسا حيث درس أعمال دافنشي ومايكل انجيلو وبارتولوميو. لوحات رافائيل بشكل عام تجدد فكرة الجمال المثالي وعظمة الإنسان، و "عذراء سيستين" تمثل ذروة عبقريته وتزده الفني، ولهذا أعتبر واحداً من أعظم الرسامين الذين جاد بهم عصر النهضة في ايطاليا. (هذا المعلومات الخاصة باللوحة مقتبسة من موقع لوحات عالمية).

(٥) في أحد أيام أغسطس الحارة من عام ١٨٦٧، وعندما كان الزوجان دستويفسكي وآنا غريغوريفنا يستقلان قطاراً ليأخذهما من بادن إلى جنيف، توقف الزوجان لمدة يوم في مدينة بازل. لم يكن توقفهما في تلك المدينة الصغيرة محض مصادفة، فلقد كان دستويفسكي ينوي التوجه إلى معرض بازل لمشاهدة لوحة محددة قرأ عنها في



نفسه شعوراً بالانسحاق الفظيع انعكس في رواية "الأبله". وكان يقيم وزناً للوحات تيتسيان وموريليو ورمبرانت وفان دايك بخاصة.

في درسدن انكب دستويفسكي على قراءة ألكسندر هيرتسن أحد أعمق المفكّرين الروس الذين كان لهم تأثير كبير في أدبه. وفي أوقات الفراغ يطلق العنان لبعض عاداته المحبّبة. فكان يتناول يومياً سمكاً مقلياً طازجاً في مطعم مطل على نهر إلبا، ويتمشّى في حديقة غروسين غاردن والمسافة إليها من الفندق لا تقل عن سبعة كيلومترات ذهاباً وإياباً. ولم يكن يتخلّى عن هذه الجولة حتى في الجو الممطر. في تلك الحديقة مطعم تعزف جوقته أصنافاً من الموسيقى. ولم يكن دستويفسكي على إلمام كبير في فنونها، لكنه يتمتّع بموسيقى موزارت وبتهوفن وروسيني ولا يحب ريتشارد فاغنر "ربما لأن

مذكرات رحالة روسي. هذه اللوحة تدعى «جسد المسيح الميت في الكفن» للفنان السويسري هولبن. تحدثنا آنا غريغور في مذكراتها عن الانطباع القوي الذي تركته تلك اللوحة الأفقية على نفسية زوجها الحساسة:

"في الطريق إلى جنيف، توقفنا ليوم واحد في بازل، وفي نيتنا أن نرى اللوحة التي سمع بها زوجي من أحدهم. هذه اللوحة، والمرسومة بريشة هانز هولبن، تُصوّر عيسى المسيح، بعد أن قاسى من العذابات ما يفوق طاقة البشر، وقد أنزل من الصليب وأسلم للتحلّل والعفن. وجهه المنتفخ مغطى بالجراح الدامية، وقد بدا مفزعاً. اللوحة تركت انطباعاً هائلاً على زوجي، ولقد توقف أمامها كما لو أنّه مصعوق.. بعد أن عدت إليه بعد ما يقارب الخمس عشرة إلى عشرين دقيقة، وجدت زوجي لا يزال واقفاً أمام اللوحة كما لو أنه مربوط بها. بدت على وجهه المهتاج تلك الملامح المفزوعة التي اعتدت أن أراها في اللحظات الأولى السابقة لنوبات الصرع التي تداهمه. أسرعت بإمساكه من تحت ذراعه، وأخذته إلى غرفة أخرى، وأجلسته على كرسي؛ مترقبة في أي لحظة مجيء نوبة الصرع، لحسن الحظ أنها لم تأت. ".. هذه اللوحة كانت تشكل البنية الأساسية لكتابة دستويفسكي لرائعته الخالدة "الأبلة".

دستويفسكي تربّى على تقاليد الموسيقى الروسية الكلاسيكية وعلى رومانسية غلينكا".

وكنا في الأمسيات نتجادل في مواضيع شتى. وفي الجدال تطفو خلافاتنا الفكرية، حول "المسألة النسوية" خصوصاً. فقد كنت، من حيث السن والميول، من جيل الستينات الذي تميزت نساؤه بالنزعة التحرّرية والرفض العدمي. وكان فيودور دستويفسكي لا يحب الروافض ويشمئز من "رجولتهن" وخشونتهن وعدم اكتراثهن بمظاهر الأنوثة. وكان يؤلمني في نقاشات زوجي معي أنّه ينكر على نساء جيلي صلابة العود والمثابرة في بلوغ الهدف المنشود، لكن موقفه من المرأة تبدل تماماً في السبعينات عندما ظهرت على المسرح نساء مثقفات وذكيات فعلاً ينظرن إلى الحياة بمنظار حاد. وفي تلك الفترة أكد في مجلته "يوميات كاتب" أنه يعلّق آمالاً عريضة على المرأة الروسية التي "أخذت تبدي المزيد من المواظبة والجدية والصدق والعفة والتضحية والبحث عن الحقيقة"، على حدِّ تعبيره.



أشيع في درسدن أن امبراطور روسيا تعرّض لمحاولة اغتيال أثناء زيارته للمعرض الدولي في باريس وأن إرهابياً من أصل بولوني أصابه بعيارات نارية. كان لهذا النبأ وقع الصاعقة في نفس دستويفسكي. فهو من المعجبين بالقيصر ألكسندر الثاني الذي ألغى القنانة وحرر الفلاحين منها وأقدم على

الإصلاح. ثم أن دستويفسكي من المتحمسين للنظام الملكي عموما ويدعو إلى اتحاد الشعب مع "القيصر المحرر" المتنور. زد على ذلك أنه مدين للإمبراطور الحالي باسترجاع حقوقه المدنية كنبيل أباً عن جد، وقد سمع له القيصر، بمناسبة اعتلائه العرش، بالعودة إلى بطرسبورغ بعد الإقامة الجبرية في سيبيريا، أسرعنا إلى قنصليتنا في درسدن لتسجيل حضور ولاستنكار هذه الفعلة الشنيعة. اختطف لون دستويفسكي وكان في اضطراب نفساني شديد، حتى أنه مضى إلى القنصلية راكضاً تقريباً. وكنت أخشى عليه من نوبة صرع جديدة. وقد أصابته فعلاً في تلك الليلة. ومن حسن الحظ أن محاولة الاغتيال كانت فاشلة. إلا أن زوجي ظل حزينا متألما للغاية. فتلك هي المحاولة الثانية لاغتيال القيصر الذي يحترمه ويعزّه، مما يدل على أن شباك التآمر عليه ضربت جذورها عميقاً.

هدأ روع زوجي فعاد إلى مقالته المطولة عن بيلينسكي(٦) بعد

---

(٦) قال الناقد بيلينسكي الكبير عام ١٨٤٦ للروائي الروسي دستويفسكي بعد أن قرأ مخطوط روايته الأولى وهي رواية الفقراء: «سيأتي على روسيا روائيون كثيرون وستنسى روسيا معظمهم، أما أنت فلن تنساك روسيا أبداً، لأنك روائي عظيم، المجد والشرف للشاعر الشاب الذي تحب آلهة وحيه سكان السقوف والأقبية وتقول عنهم لأصحاب القصور المذهبة: هؤلاء بشر أيضاً، هؤلاء اخوانكم «هكذا وصف الناقد بيلينسكي الروائي دوستويفسكي قبل أن ينشر الأخير عملاً روائياً واحداً».

كان بيلينسكي ناقداً ديمقراطياً ومفكراً تقدمياً يقف على رأس جيل عظيم من الأدباء والمثقفين الروس الكبار وكان خارج حاشية قيصر روسيا. كان بيلينسكي يمتدح ويحث غوغول الكاتب الروائي الكبير على مواصلة ابداعاته بالإنحياز التام لقوى التغيير الديمقراطي وكان ينتقده بشدّة لوقوعه تحت تأثير القوى والأوساط الرجعية الموالية لنظام القيصر. وبعد صدور كتاب غوغول، مقاطع من مراسلات مع الأصدقاء، الذي عكس أزمة غوغول النفسية ونزعته الموالية للكنيسة قدم بيلينسكي



أن عذّبته كثيراً لتعقيدها، حتى كرّر صياغتها خمس مرات وجاءت، رغم ذلك، بشكل لا يرضيه. كان يريد أن يفضي بكل ما تراكم في نفسه ويعرض رأيه الصادق في هذا الناقد الروسي الكبير الـذي يقدر موهبته النقدية ويعترف بتأثره وبفضله في تشجيع أدب دستويفسكي في شبابه، حتى أكد قائلاً: "تبنيت تعاليمه آنذاك بمنتهى الحماس". لكنه تحول واتخذ موقفاً عدائياً إزاء دستويفسكي في النهاية. وما كان بوسع زوجي أن يسامح بيلينسكي على تهكمه وازدرائه لمعتقداته الدينية، فضلاً عن الخلافات الفكرية الأخرى، حول الإشتراكية الإلحادية بخاصة، ولعل الانطباعات الثقيلة التي خلفتها العلاقات بين دستويفسكي وبيلينسكي تعود أساساً إلى همهمات ووشايات "الأصدقاء" الذين أقاموا وزنـاً لموهبة دستويفسكي في بادئ الأمـر ثم انقلبوا عليه لأسباب غير مفهومة، فتأزمت علاقاته مع نكراسوف وتورغينيف خصوصاً، ولقيت تلك المقالة القيمة مصيراً مؤسفاً. فقد ضاع أثرها. بعثها دستويفسكي من درسدن إلى موسكو، ولم نعلم بضياعها إلا بعد

له نصحاً بالعودة إلى الشعب كمنهل لإبداعه الفني وانتقد ما أسماه بأفكاره الشيطانية التصوّفية وبُعدها عن الواقع الروسي المثقل بالإقطاع والقنانة. رغم مدح بيلينسكي لدستويفسكي في بدايته إلا أن الهوة بدأت تتسع بين دستويفسكي من جهة، وبين الناقد بيلينسكي من جهة أخرى. كان دستويفسكي يؤمن بإمكانيات الشعب الروسي، ويؤمن بالإنجيل، في حين أن بيلينسكي وفريقه كانوا من أنصار الثورة على الواقع المر والظالم!

خمس سنوات. وسبب ضياعها أنها وقعت في يد الشاعر مايكوف، فكتب إلى دستويفسكي عن صراحتها حيث إنها لا تصلح للنشر إلا ضمن مذكرات ما بعد الموت.

بعد ثلاثة أسابيع من مكوثنا في درسدن فاجأني زوجي بتلميح صريح إلى كازينوهات القمار وقال إنه لو كان هنا لوحده لعرج عليها من كل بدّ. ثم تطرّق إلى هذا الموضوع أكثر من مرة فرأيت ألا أقف حجر عثرة في طريقه. اقترحت عليه أن يسافر إلى هامبورغ فمانع في البداية ثم وافق لشدة ما كان راغب أن "يجرّب حظه". وما أن مرّ يومان أو ثلاثة حتى تواردت علي رسائل منه يبلغني فيها بخسائره ويطلب نقوداً، فأرسلت نقوداً وخسرها من جديد. وتكرّر الحال مراراً، حتى عاد إلى درسدن خالي الوفاض، لكنّه فرح كثيراً عندما حاولت أن أطيب خاطره كيلا يأسف على ما خسر. وكان ما دفعني إلى ذلك طبعاً هو خوفي على صحته، كانت رحلته الفاشلة إلى هامبورغ أثّرت في نفسه كثيراً، فنسب أسباب الخسارة إلى الاستعجال وإلى تجريب أساليب متنوّعة قادته إلى الفشل، في حين كانت فرصة الإثراء قاب قوسين أو أدنى. وراح يقنعني بأنه سيتبع طريقة جديدة لا بد أن تؤدي إلى الفوز. ورأينا أن نتوقف في بادن لأسبوعين فقط كي يجرّب حظه في القمار من جديد، كنا تلقينا حوالة من مجلة "البشير" فغادرنا درسدن بأسف، بهاجس لا يبشّر بخير. أمضينا في بادن خمسة أسابيع، في كابوس متواصل قيّد زوجي بسلاسل من حديد. كانت حساباته في الفوز صحيحة فيما لو طبّقها رجل إنكليزي أو ألماني بارد الأعصاب وليس دستويفسكي العصبي الذي تجاوز كل الحدود. بعد أسبوع خسر كل ما نملك من مال. فاضطررنا أن نرهن حاجياتنا في الكازينو حتى هدية الزفاف.

ذات مرة جاءني بكيس مليء بالنقود. حالفه الحظ أخيراً، لكنّه لم يتوقف، فخسرها من جديد. وأقول صراحة إني تلقيت "ضربات المصير" تلك بأعصاب باردة. فقد جلبناها لنفسنا بمحض اختيارنا. وتأكد لي أن دستويفسكي لن يكسب شيئاً وأن توسلاتي إليه بالكفّ عن اللّعب لا جدوى منها، في البداية استغربت من هذا الرجل الذي تحمّل بمنتهى البسالة آلام السجن والإعدام الوشيك والنفي، الأشغال الشاقة ووفاة أخيه وزوجته، لكنّه عاجز عن التوقف والامتناع عن المجازفة بآخر فلس. وكنت أعتبر ذلك أمراً لا يليق بمنزلته، ويصعب عليّ أن أعترف بنقطة الضعف المشينة هذه في طباعه. لكنّني سرعان ما أدركت أن ذلك ليس مجرّد ضعف إرادة، بل هو مرض لا علاج له سوى الفرار من هذا الجحيم. فقد كان دستويفسكي عندما يعدم الوسيلة للحصول على المال يقع فراسة لحزن بالغ حتى أنه يبكي بأحر الدموع ويركع أمامي طالباً الصفح على ما يسببه لي من آلام. وكنت أسعى إلى تهدئته وألجأ إلى شتى السبل لصرف أنظاره عن الولع بالقمار.

عدنا، بسبب الإفلاس هذه المرة، إلى ممارسة رياضة المشي وتجولنا في قلاع بادن وحصونها القديمة، وكانت كل جولة تستغرق نهاراً كاملاً. وعندما تصلنا الحوالات المالية تتوقّف جولاتنا وتنتهي حياة الدعة والاطمئنان إذ تبدأ كوابيس القمار من جديد، ولم يكن لدينا معارف وأصدقاء في هذه المدينة. ذات مرة التقينا صدفة بالكاتب الروسي الكبير إيفان غونتشاروف، ولم يعجبني مظهره ولهجته. كان أشبه بموظف حكومي عادي، زار دستويفسكي، بدوني، منزل إيفان تورغينيف المقيم في بادن آنذاك، وعاد منه في أقصى درجات الانفعال، و أخيراً هربنا من جحيم بادن إلى نعيم جنيف. استأجرنا شقة

متواضعة بعد أن تعوّدنا على شظف العيش. وعدنا إلى حياة النظام: دستويفسكي يكتب ليلاً، ويستيقظ متأخراً، في الحادية عشرة صباحاً كما تعوّد في بطرسبورغ. وبعد الفطور يواصل عمله، فيما أمضي للنزهة كما أوصاني الطبيب "كنت حاملاً". وفي الثالثة ظهراً نتغدّى في أحد المطاعم ويرافقني زوجي إلى المنزل، ثم يرج على مقهى يصرف فيه ساعتين في مطالعة جرائد روسية وأجنبية. وحوالي السابعة مساء نتمشّى كثيراً كالعادة. وبعد ذلك يملي عليّ دستويفكسي نتاجاً جديداً أو يقرأ كتباً فرنسية. وفي شتاء ١٨٦٨ قرأ مجدداً "بؤساء" لـ فيكتور هيجو، وكان معجباً خصوصاً ببلزاك وجورج صاند. "ترجم دستويفسكي رواية "أوجيلي غرانده" إلى الروسية، وكان لأدب بلزاك صدى في مؤلفاته، فثمة تشابه بين أبطال "الأب غوريو" و"الجريمة العقاب" وكذلك بين أبطال "الحانة الحمراء" و "الأخوة كارامازوف"، كما ترجم دستويفسكي عام ١٨٤٤ قصة جورج صاند "الأخير من سلالة الديني"، وكان لنتاج هذه الكاتبة تأثير كبير عليه في مطلع حياته الأدبية".

وفي جنيف أيضاً لم يكن عندنا أصدقاء. دستويفسكي بطبيعته غير ميال إلى البحث عن معارف جدد. ولم يلتقِ هناك أحداً من المعارف القدامى، ما عدا الشاعر الروسي المعروف نيقولاي أوغاريوف الذي أخذ يتردّد علينا كثيراً ويزوّدنا بالكتب والمجلات، حتى أنه صار يقرضنا في بعض الأحيان مبلغاً زهيداً نعيده إليه كلّما تحسّنت أحوالنا. كان طاعن السن وكنا نرتاح إليه، إلّا أنه انقطع عنا بعد ثلاثة أشهر. فقد مرض ونقله أصدقاؤه إلى إيطاليا للعلاج، ولسوء الحظ سرعان ما خابت آمالنا في نعيم جنيف. تردّت الأحوال الجوية وأثرت العواصف والأمطار وتقلّبات الطقس اليومية في صحة زوجي فتوالت عليه نوبات الصرع. كان آنذاك، في خريف ١٨٦٧ ، شرع في تأليف

"الأبله"، ولم يكن راضياً عن الفصول الأولى من الرواية، كعادته في موقفه من كلّ ما يكتبه. كان يعجب أشد الإعجاب بفكرة كل رواية، لكنّه ما إن يفرغ منها حتى يشعر بالضيق و عدم الرضا.

في جنيف ولدت ابنتنا البكر صوفيا في ٢٢ شباط ١٨٦٨. ولشد ما عانيت من عسر الوضع، ولشد ما تألم دستويفسكي وصلّى وبكى خائفاً عليّ من الموت. وفيما بعد وصف مشهد الولادة في رواية "الشياطين" كان دستويفكسي أباً من أرق الآباء. لكن الحظ لم يحالفنا إذ مرضت الطفلة وتوفيت في شهرها الثالث. ولم يكن لحزننا حدود. كنا نحمل الزهور ونتردّد على المقبرة كل يوم لذرف الدموع، إلى أن أصبح البقاء بهذه المدينة أكبر من طاقتنا.

استقرّ رأينا على الرحيل إلى فيينا. ولا أذكر طوال ١٤ عاماً من حياتنا الزوجية أننا عشنا صيفاً حزيناً لهذا الحدّ كصيف ١٨٦٨ في تلك المدينة، حتى لكأنّ الحياة توقّفت وتجمّدت بالنسبة إلينا. كلّ أحاديثنا وذكرياتنا تدور حول الفقيدة وكلّ طفل نلقاه في الشارع يذكّرنا بها، واصل زوجي بشق النفس كتابة "الأبله"، لكنها لم تجلب له السلوى. فسافرنا إلى ميلانو، وأدى تبدل الموقف وانطباعات الطريق إلى بعض التحسن في مزاج دستويفسكي، لكن خريف هذه المدينة بارد مطير، وليس في مكتباتها جرائد روسية، فانتقلنا بعد شهرين إلى فلورنسا عاصمة إيطاليا آنذاك. ولحسن الحظ وجدنا في مكتبتها الرائعة جريدتين روسيتين مكّنتا زوجي من الاطلاع على الأوضاع في الوطن يوماً بيوم. واستعار لأشهر الشتاء مؤلّفات فولتير وديدرو وقرأها بالفرنسية التي يجيدها تماماً. "فيما بعد تجلّى تأثير "كانديد" واضحاً في "الأخوة كارامازوف" وتجلى تأثير ديدرو في "الأبله" وفي "مذكرات من تحت الأرض".

حلّ عام ١٨٦٩ وجاءتنا معه فرحة، إذ اتضح أني حامل من جديد. أبدى دستويفسكي عناية بالغة بصحتي. حتى أنّه أخفى عليّ أحد مجلدات رواية الكونت الشاب ليو تولستوي "الحرب والسلام" التي صدرت تواً لمجرد أن الكاتب يصف في ذلك المجلد وفاة زوجة الأمير أندريه بولكونسكي أثناء الوضع. كان يخشى علي من تأثير هذا الوصف الفنّي البارع، تعوّدنا على حياة الشظف والعناء، لكن مشكلة أخرى واجهتنا. فقد أدرك دستويفسكي فجأة أنه ابتعد عن روسيا كثيراً خاصة العامين الأخيرين وصار الحنين يشدّه إليها. وشعر بحاجة ماسة إلى مادة من الواقع الروسي تمكّنه من مواصلة الكتابة. فاقترحت عليه أن نقضي الشتاء في براغ المدينة السلافية الأقرب روحياً إلى الأجواء الروسية. ولصعوبة الطريق عليّ توقفنا في البندقية لأربعة أيام لم نبارح فيها تقريباً ساحة القديس مرقص لشد ما أُعجب زوجي بمعمار كنيسته وبسقف قصر الأمطار الذي تزينه لوحات أفضل رسامي القرن الخامس عشر.

وصلنا إلى براغ بعد عشرة أيام من التجوال والترحال. وتعذّرت علينا الإقامة فيها لغلاء المعيشة وارتفاع الإيجار. فاضطررنا إلى مغادرتها بأسف بعد ثلاثة أيام. تبددت أمنية زوجي في لقاء العالم السلافي، ولم يبق أمامنا ساعتها سوى العودة إلى درسدن من جديد. فنحن نعرف ظروفها، وثمة جالية روسية كبيرة قد تسري عنا، هناك ولدت ابنتي الثانية لوبوف[٧] وأشرقت السعادة في عائلتنا.

---

(٧) فيما بعد غدت لوبوف دستويفسكي روائية نشرت عدة مؤلفات وهاجرت من روسيا عام ١٩١٣ ، ولم تعد إليها، أصدرت بالألمانية في ١٩٢٠ مذكراتها عن والدها فجاءت شخصيته «صورة قلمية « بعيدة عن الواقع في بعض جوانبها، خلافاً



وانشغل دستويفسكي، شتاء ۱۸۷۰، في وضع مخطط رواية جديدة ضخمة أراد أن يسميها "الخاطئ". وتتكوّن من خمس قصص مطوّلة مستقلّة ومترابطة تتناول بمجملها مسألة الخالق والخطيئة التي اهتم بها زوجي طول حياته. ولعلّ حياة الغربة أيقظت فيه المشاعر المسيحية العميقة والأفكار الدينية الصافية وخلّصته من التعنّت والمكابرة فجعلته أكثر طيبة وتسامحاً واستسلاماً، الأمر الذي تجلّى بأفضل تعبير في مؤلفاته. كان يريد لأحداث القصة الأولى من "الخاطئ" أن تجري في الأربعينات، ومادتها متوافرة ونماذج شخوصها حاضرة في ذهنه، وكان بوسعه أن يشرع في كتابتها وهو في الخارج. إلا أن مادة القصة الثانية تعوزه. أحداثها تجري في أحد الأديرة وبطلها الرئيسي شخصية واقعية وهو القسيس تيخون زادونسكي باسم آخر طبعاً. وكان لا بدّ

لمذكرات أمها آنا غريغوريفنا. فالكاتبة كانت قاصرة في الحادية عشرة عندما توفى أبوها. وفي تلك الفترة أنهى فيودور دستويفسكي روايته «الزوج الدائم» التي وصف فيها حياته بضواحي موسكو عام ١٨٦٦.

لنا من العودة إلى روسيا لتوفير المادة لرواية يعلّق عليها دستويفسكي أهمية بالغة ويريد لها أن تكون خاتمة لنشاطه الأدبي. لكنّه لم يتمكّن من تحقيق ما أراد لأنه انشغل في موضوع آخر هو رواية "الشياطين" التي تناولت الحياة السياسية في روسيا آنذاك. ولم يكن دستويفسكي راضياً عن الرواية حتى أنّه أتلف خمس عشرة ملزمة من مخطوطتها وأعاد صياغة الجزء الثالث بالكامل. ويبدو أنّ الرواية المتحيّزة سياسياً لا تتلاءم وروح نتاجه. ومع ذلك حظيت "الشياطين" بإقبال واسع لدى القرّاء، لكنّها من جهة أخرى جلبت المتاعب لدستويفسكي وخلقت له أعداء كثيرين في الوسط الأدبي. وانهالت عليه عشرات الصحف والمجلات من اليمين واليسار بالتقريع والتنديد دون أن تقدم تحليلاً للرواية واعتبرها النقّاد تحاملاً مجحفاً وتجنياً لا مبرّر له على الحركة الثورية والشباب المعاصر، وعندما أخفق دستويفسكي في كتابة "الخاطئ" لم يهمل موضوعها، وأدرج كثيراً من شخوصها فيما بعد ضمن "الأخوة كارامازوف" التي غدت بالفعل خاتمة لنشاطه الأدبي.

مرّ على منفانا الاختياري في الخارج أكثر من أربعة أعوام. وكنت أتصوّره سجناً دخلته ولن أتمكّن من تركه. كانت بارقة الأمل في العودة إلى روسيا تلوح وتختفي بين حين وآخر. وعندما تختفي تنتابنا كآبة لا تُطاق. فيقول دستويفسكي آنذاك إن موهبته الأدبية نضبت وإنها ستذوي وتموت. ولكي أخفّف عليه لجأت إلى الوسيلة المجرّبة. اقترحت عليه أن يسافر إلى سبادن ليسلّي نفسه بالقمار عسى أن يحالفه الحظ. وكنت في الحقيقة أريد أن أضرب عصفورين بحجر. فأنا واثقة أنه سيخسر البقية الباقية من نقودنا. لكنه سيفارق همومه من جهة ويعود من جهة أخرى إلى الكتابة بهِمّة تعوّض لنا ما خسرناه. وكما توقّعت جاءت النتيجة مؤسفة، فخسر زوجي كل ما

عنده. وتعرّض لتأنيب ضمير لازمه أسبوعاً لأنه حرم زوجته وابنته من لقمة العيش! ولكنّه صمّم هذه المرّة على التخلّص من هذا المرض الذي عذّبه طوال عشر سنين. وعدني بعدم المعاودة إلى القمار مدى الحياة. ولم أصدقه بالطبع. فما أكثر ما كرر وعده فيما مضى. لكنه وفى به هذه المرة، وانقطع عن اللعب إلى الأبد. ففي رحلاته المتكرّرة التالية إلى الخارج لم يفكر يوماً بالذهاب إلى الكازينوهات. صحيح أنها أغلقت في المانيا بعد رحيلنا، لكنها ظلت مفتوحة الأبواب في سكسونيا ومونت كارلو، والمسافة إليهما ليست بعائق على أية حال. إلا أن دستويفسكي تخلص، والحمد لله، من هذا العيب الشنيع.

شددنا الرحال إلى روسيا في ٥ تموز ١٨٧١. جمع زوجي مخطوطاته وطلب مني أن أحرقها. مانعت قدر المستطاع، لكنه أقنعني بأن رجال الشرطة على الحدود الروسية سيصادرونها في كل الأحـوال كما فعلوا أثناء اعتقاله عام ١٨٤٩. وهكذا أتلفت مخطوطات "الأبله" و"الزوج الدائم " و"الشياطين". وحينما وصلنا الحدود تعرّضنا لتفتيش دقيق كما كان متوقّعاً. لكن كل شيء مرّ بسلام، فما أعظم فرحتنا ونحن نعود إلى الوطن!

عدنا من ألمانيا إلى بطرسبورغ في نهار صحو قائظ. إلّا أن دستويفسكي تصوّر مستقبلنا ضبابياً قاتماً وتوقع لنا مصاعب جمة لا بد من تذليلها حتى نجد موطئ قدم على أرض الوطن. استأجرنا غرفتين في شقة مؤقتة قرب منتزه يوسف، وكنت حاملاً في انتظار المولود الثالث. بعد ثمانية أيام من وصولنا رزقت بابني فيودور الذي سمّيته تيمناً باسم أبيه. ثم انتقلنا إلى شقة من أربع غرف، تقاطر علينا أقرباؤنا رأساً، واستقبلناهم ببشاشة وترحاب. ومن حسن الحظ أن أولاد أخي دستويفسكي وأمهم إميليا صاروا يعيشون في بحبوحة ولم يعودوا ينتظروا منه مساعدة إلا في حالات استثنائية. لكن ابنه

المتبَنّى بافل، وكان تزوج قبل شهور، ظل يعول على "والده" متصوّراً أن دستويفسكي ملزم بإعالته حتى الشيخوخة.

وفي غيابنا تجرّأ على بيع محتويات مكتبة زوجي الغنية. وكان ضياع المكتبة ضربة قاسية لدستويفسكي، ومن جهة أخرى هجم علينا "جيش " من الدائنين حالما قرأوا في الصحف نبأ عودة الكاتب فيودور دستويفسكي، وهدّدوه بالسجن إن هو عجز عن تسديد الديون المستحقّة من زمان. ومن ذلك الحين بدأت "معركتنا " الطاحنة مع الدائنين واستمرت تنغص حياتنا يوميّاً طوال عشر سنين حتى وفاة زوجي في بداية ١٨٨١.



ورغم المنغّصات كان شتاء ١٨٧٢ حافل باللقاءات الهامة. استعاد دستويفكسي اتصالاته مع العديد من أصدقائه القدامى، وبالتالي بطائفة من علماء عصره كالمستشرق غريغوريف الذي نرى صدى لأفكاره في رواية "الشياطين" والفيلسوف نيكولاي دانيليفسكي مؤلّف كتاب "روسيا وأوروبا" الذي ترك أثراً ملحوظاً في أراء دستويفكسي بخصوص "رسالة روسيا" كدولة غربية واشتركية في آن معا، وفي ذلك العام رغب بافل تريتياكوف صاحب معرض الصور الجاليري الشهير في موسكو، وهو من المعجبين بنتاج دستويفسكي، أن يحصل على

صورة زيتية له فأوفد إلى بطرسبورغ لهذا الغرض الرسام الروسي المعروف فاسيلي بيروف.

وقبل أن يبدأ هذا الأخير عمله صار يتردّد علينا يومياً طوال أسبوع ويفاجئ دستويفسكي في شتى أحواله الإنسانية ويحاوره ويستفزّه خصيصاً للخوض في مواضيع شائكة، إلى أن تمكّن من "تصيد" أعمق تعبير في ملامح زوجي وهو شارد الذهن غارق في تأمّلاته الفنية.

التقط بيروف "لحظة الإبداع" أو الذهول التي كنت تلمّستها مراراً وأنا أدخل على زوجي مكتبه لأمر ما فأجده غائصاً في ذاته يحدق فيها من الداخل، وأخرج دون أن أكلّمه. وفيما بعد يتّضح لي أنّه لم يشعر بوجودي ولا يصدق بأني دخلت عليه المكتب في تلك اللحظة، كان بيروف رجلاً ذكياً لطيف المعشر. وكان دستويفسكي يرتاح إليه كثيراً حتى أنه كتب عنه في الصحف مرتين. وقد حضرت جميع وجبات رسم الصورة النصفية الشهيرة في نيسان– ايار ١٨٧٢. ويتميز هذا البورتريه بقيمة فنية يعترف بها الجميع ولا تضاهيها من هذه الناحية



سوى صورة نصفية أخرى بالحجم الطبيعي لدستويفسكي رسمها كرامسكوي في اليوم الثاني لوفاة الكاتب.

إنّني أحتفظ بأطيب الذكريات عن ربيع ١٨٧٢، لكن صيف ذلك العام كان أتعس فترة في حياتي. إذ توالت المصائب فيه الواحدة بعد الأخرى. كنّا استأجرنا منزلاً ريفياً يمتلكه قسيس طيب للغاية في بلدة ستارايا روسا الخشبية حيث البيوت كلّها من خشب، وحتى أرصفة الشوارع مبلّطة بالألواح، وفيها حمامات للعلاج بالمياه المعدنية. لكننا اضطررنا أن نترك رضيعي، وهو في شهره التاسع، في عهدة القسيس والمربّية ونعود حالاً إلى بطرسبورغ لأن ابنتي لوبوف تعرضت لحادث وانكسرت يدها، وأجريت لها عملية تجبير فاشلة ثم عملية جراحية في منتهى التعقيد. وفي نفس الفترة توفيت أختي الكبرى في روما وانكسرت رجل أمي، بعد إجراء العملية الجراحية لابنتنا عاد دستويفسكي إلى الريف في اليوم الثالث، وبقيت أنا في العاصمة أسهر على صحتها في المستشفى. ولشدّ ما دهشت حينما عدت إلى البلدة بعد أسبوعين ورأيت أن صغيري نسيني تماماً. كان يفر مني، أنا أمه ومرضعته، ويلوذ بأذيال المربّية العجوز. وهي والحق يقال امرأة في منتهى الطيبة والأريحية والمرح "تحتسي قدحا من الفودكا على الغداء كل يوم بمناسبة وبغير مناسبة"، ولا يعكر صفو حياتها سوى قلقها على ابنها الذي لا يراسلها. كان دستويفكسي يعزّها ويعتزّ بها لحبها الخالص لصغيرنا، وقد اتخذ منها في "الأخوة كارامازوف" نموذجاً للعجوز التي تتقرّب للكنيسة وتتصدّق على المساكين ترحّماً على روح ابنها وهي تعلم حق العلم أنّه على قيد الحياة. ولم تكن تلك الصورة من ابتداعات دستويفسكي، فإنّ مربّيتنا كانت تتصرّف هكذا بالفعل، حتى أن زوجي نصحها بأن تكف عن

هذه العادة وتنبّأ بوصول رسالة من ابنها في القريب العاجل. وهذا ما حصل في الواقع، وبسبب برودة ذلك الصيف أصبت بمرض تسبب في ظهور دمل في الحنجرة حبس أنفاسي وأشرفت على الموت. لكن الله ستر وزال الخطر. أما آثار كل تلك الأحداث فقد حفرت عميقاً في نفس دستويفسكي المرهف الأحاسيس، المتيم بحب طفليه وأمهما.

أتعبت رواية "الشياطين" دستويفكسي كثيراً طوال ثلاث سنين حتى رأى بعد الفراغ منها أن يؤجل البدء برواية جديدة حينا من الوقت. أراد أن يصدر مجلة شهرية فريدة من حيث الشكل والمضمون بعنوان "يوميات كاتب" يعد مادتها لوحده من ألفها إلى يائها، لكن الصعوبات المالية جعلته يؤجل هذا المشروع أيضا. وعرض عليه الأمير ميشيرسكي أن يترأس تحرير مجلته الأسبوعية المحافظة "المواطن" فقبل العرض على مضض ولفترة محدودة. لكنّه جنى على نفسه من وراء ذلك. فقد انتقل إليه، بصفته رئيساً للتحرير، العداء الذي يضمره لصاحب المجلة خصومه الفكريون. وممّا يثير الاستغراب أن الكثيرين ظلّوا، حتى بعد وفاة دستويفسكي، يلومونه على مساهمته في تحرير "المواطن". – كتب صديقه فسيفولود، الأخ الأكبر للفيلسوف الروسي الشهير فلاديمير سولوفيوف، يقول لاحقا: تمادى أعداء مؤلف "الجريمة والعقاب" في التهجم عليه والسخرية منه وأطلقوا عليه أبشع النعوت كالخائن والمرتد والمعتوه والمهووس. وكانوا يدعون الناس لمشاهدة صورة دستويفسكي بريشة الرسام بيروف حتى يتيقّنوا أنه مجنون حري بدار المجاذيب!– .

كانت بداية عام ١٨٧٣ نقطة انعطاف بالنسبة إلينا، حيث أصدرنا "الشياطين" معتمدين على أنفسنا في طبعة مستقلة غدت باكورة

نشاطنا المشترك أنا ودستويفسكي في الطباعة والنشر. وبعد نجاح هذه الخطوة أصدرنا "الأبله" ورأينا أن نعيد طبع "مذكرات من بيت الأموات" لنفاد طبعتها الأولى من سنين، كنا قبل ذلك نأمل في تحسين أوضاعنا المادية ببيع حقوق نشر "الأبله" ثم "الشياطين" في طبعة مستقلة. كل مؤلفات دستويفسكي، ما عدا المغامر، نشرت بادئ ذي بدء في المجلات الفكرية الضخمة. لكننا واجهنا صعوبة، ونحن في الخارج، في بيع حقوق النشر. ولم يكن الأمر أسهل حتى حين عدنا إلى روسيا واتصلنا بالناشرين مباشرة. فقد عرضوا علينا مبالغ زهيدة للغاية. دفع لنا أحد الناشرين مائة وخمسين روبل مقابل إصدار "الزوج الدائم" بألفي نسخة. وعرض علينا ناشر آخر خمسمائه روبل فقط يدفع على أقساط مقابل "الشياطين". إلا أنّ فيودور دستويفسكي كان منذ شبابه يحلم بطبع مؤلفاته بنفسه. ومن جهتي رحبت بالفكرة وتحمّست لها ولم أكن أدري أني سأكرّس لها، بعد وفاة زوجي أيضاً، ثمانية وثلاثين عاماً من حياتي. وكان دستويفسكي أهداني حقوق طبع مؤلفاته من سنة ١٨٧٣.

في تلك الفترة ما كان أحد من الكتّاب الروس تجرّأ على إصدار مؤلفاته بنفسه. فكنا روادا في هذه المجازفة. كانت الحسابات مشجّعة تفيد أن إصدار مجلدات "الشياطين" الثلاثة بـ ٣٥٠٠ نسخة يكلف أربعة آلاف روبل على وجه التقريب، في حين يمكن أن تباع الرواية عموماً بـ ١٢ ألف روبل يذهب ثلثها في أحسن الأحوال للموزعين. فاقترضنا مبلغاً لستة شهور. ونشرنا إعلاناً عن قرب صدور الكتاب. وما كان أشد فرحتنا عندما تقاطر على دارنا رسل المكتبات التجارية ليشتروا عشرات من النسخ نقداً بتنزيلات تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ في المائة من سعر الغلاف، على أية حال، بدأ

نشاطنا الطباعي موفّقاً تماماً، فبيعت نسخ الكتاب قبل أن ينتهي العام وتجاوز صافي عائداته أربعة آلاف روبل. وكان ذلك مبعثاً لارتياحي بخاصة. أما دستويفسكي فقد سره كثيرا إقبال الجمهور على الرواية. فالقراء هم سنده الوحيد في ميدان الأدب. ولم يبذل النقاد – ما عدا بيلينسكي ودوبرولوبوف– آنذاك جهدا للكشف عن موهبته. تجاهله بعضهم، فيما أضمر له البعض الآخر العداء، بل جاهروه به. وعندما أراجع كتاباتهم اليوم، بعد خمسة وثلاثين عاماً من وفاة دستويفسكي، تدهشني بسطحيتها وحقدها الأعمى!

في نيسان ١٨٧٤ ترك دستويفسكي مجلة "المواطن" بعد أن عانى منها الأمرّين، حتى أنّه غرّم ماليّاً بحكم المحكمة وأودع السجن يومين عقاباً على إحدى مقالاته فيها. وعاد إلى النتاج الأدبي الصرف بتشوق كبير، حيث شرع بكتابة "المراهق"، في ذلك الشهر زارنا على غير عادته الشاعر الكبير نيقولاي نكراسوف[٨]، صديق الطفولة

---

(٨) عندما كتب دستويفسكي روايته الأولى الفقراء أخذ الشاعر الروسي الكبير نيكراسوف مخطوطة الرواية قبل صدورها إلى بيلينسكي ناقد روسيا الجبار وينادي وهو على الباب ملوحاً في يده كالراية قائلاً: «لقد نشأ غوغول جديد».
ولد نيكولاي نكراسوف في العاشرة من شهر كانون الأول عام ١٨٢١ في بلدة نيمروفيا في أوكرانيا لينتقل مع أسرته بعدها إلى "كرشنيفا" الواقعة على نهر الفولكا في مقاطعة "ياروسلافل". بعد تخرجه في مدرسة القرية قرر والده إرساله إلى بطرسبورغ ليلتحق بالمدرسة العسكرية إلا أن نكراسوف تمرد على هذا الأمر محاولاً الالتحاق بالجامعة مما دفع بوالده إلى قطع مصروفه فانخرط نكراسوف للعمل بغية الحصول على لقمة العيش. في سن التاسعة عشرة، أصدر مجموعته البكر "أحلام وأصوات".
في عام ١٨٤٠ انضم نكراسوف مع رهط من الأدباء الشباب حول الناقد الكبير بيلينسكي الذي ساعد نكراسوف في تطوير الاتجاه الثوري الديمقراطي ومناهضة الحكم القيصري وفي عام ١٨٤٦ أشرف نكراسوف على المجلة الأدبية "المعاصر"

وعدو"الكهولة". أثار مجيئه فضولي لدرجة جعلتني أقف وراء الباب أتنصّت لما يدور بينه وبين زوجي. كنت مطّلعة على الصراع الفكري بين مجلة نكراسوف "المعاصر" ومجلتي الخوين دستويفسكي "الوقت" و"العصر" في الستينات. ثم أن مجلة نكراسوف الأخرى "رسالة الوطن" لم تكن تستنكف عن مهاجمة دستويفسكي. وما كان أعظم فرحتي عندما سمعت نكراسوف يدعو زوجي للتعاون ويعرض عليه نشر "المراهق" في مجلّته بأجرٍ مغرٍ، ٢٥٠ روبلاً للملزمة وليس ١٥٠ كما في مجلة "البشير".

لعل نكراسوف تصوّر، عندما رأى أوضاعنا المزرية، أنّ دستويفسكي سيطير فرحاً، يوافق على اقتراحه. إلا أن زوجي شكره وقال: لا يليق أن أقبل هذا العرض دون علم "البشير"، فلي معها علاقات طيبة، وقد تحتاج إلى نتاجي. ثم ارتحل دستويفسكي إلى موسكو ليناقش هذا الموضوع شخصياً مع رئيس تحرير "البشير". فوافق هذا الأخير على السعر الجديد، لكنه اعتذر عن عدم تقديم السلفة،

التي يعود الفضل لتأسيسها إلى الشاعر الروسي الكبير "بوشكين"، وقد ساهم في تحريرها أبرز أدباء العصر أمثال جرونشيفسكي ودبروليوبوف وتورغينيف وليف تولستوي وشيدرين، فكانت منبر الأدب الثوري. وفي عام ١٨٦٤ أصدر نكراسوف ملحمته الخالدة "السكة الحديد" والتي تعتبر واحدة من أهم أشعاره الإجتماعية حيث يخلص فيها الشاعر للفلاح الروسي وفي عام ١٨٦٦ أغلقت مجلة المعاصر مما اضطر نكراسوف عام ١٨٦٧ لشراء امتياز صحيفة "مذكرات وطنية" ليجعل منها بوقاً صادحاً للتغني بالوطنية الصحيحة وفي عام ١٨٧٠ أصدر ملحمته الشعرية "الجد" والتي يجسد فيها انتفاضة الديسمبريين ليصدر بعدها "نساء روسيات".
"لقد تعلم على يد نكراسوف جيل كامل من الثوريين".
هكذا يقول لينين عن نكراسوف.



فالمجلة اشترت مؤخراً حقوق نشر رواية ليو تولستوي "آنا كارينينا" على مدار عام ١٨٧٩ ولم يبقَ لديها فائض من مال. وبهذه الصورة حلّت المسألة لصالح نكراسوف، سُرَّ زوجي كثيراً لعودة العلاقات مع صديق طفولته إلى سابق عهدها. إلا أن للمسألة جانباً سلبياً أيضاً. فلدستويفسكي أعداء كثيرون بين الأدباء العاملين في مجلة نكراسوف ذات الاتجاه الفكري المخالف لآرائه، وقد يضطرونه إلى تغيير فكرة الرواية بحيث تلائم اتجاههم. وما كان بوسعه أن يتنازل عن مبادئه قيد أنملة. وكان من المستبعد أن تنشر "الرسالة" رواية تتضمن آراء تتعارض وآرائها. وهذا ما أثار قلقنا. فإن دستويفسكي والحال هذه قد يسحب "المراهق" من المجلة، في حين تبخر المبلغ الكبير الذي استلمناه مقابلها. سددنا قسماً من الديون المستحقة، وسافر زوجي بالتالي إلى ألمانيا للعلاج من النزلة الصدرية في حزيران ١٨٧٤. وفي طريق العودة بعد شهرين عرج على جنيف خصيصاً ليزور قبر ابنتنا صوفيا، وجلب لي غصناً من السروة التي غرسناها عند القبر من ست سنين.

بسبب الضائقة المالية المزمنة قررنا أن نقضي الشتاء أيضاً في الريف. فالأطعمة والإيجار أرخص مما في العاصمة بمرات. عشنا لأوّل مرّة حياة موزونة هادئة مكنت زوجي من مواصلة كتابة روايته الجديدة، حتّى أنّنا لم نستدعِ الطبيب له كما كنّا نفعل كلّ شتاء في بطرسبورغ. كان دستويفسكي يداعب طفليه ويرقص معهما، ومعي أحياناً، على أنغام الكادريل والفالس والمازوركا البولونية وهو في أطيب مزاج. ولذا تدهشني ادعاءات البعض من أنه سوداوي منقبض النفس دوماً. وقبيل المنام يبارك الصغيرين ويرتّل معهما "يا أبانا" وسائر الابتهالات الدينية كل ليلة. ولم أرَ في حياتي رجل أكثر منه مهارة في ولوج عالم الأطفال وتشويقهم بحكاياته المثيرة حتى ليغدو واحداً منهم، كان يعمل كالعادة حتى الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل ويملي عليّ ساعة أو ساعتين في النهار.

عجزت عن الكتابة ذات مرّة في موضع من الفصل التاسع من "المراهق" – مشهد انتحار الفتاة –. فسألني متحيّراً:

– ماذا بك يا عزيزتي؟ أنت شاحبة جداً، هل تشعرين بوعكة؟

– كلا. وصفك أرعبني.

– يا إلهي، هل يعقل أن له تأثيراً بهذه الشدة؟ أعذريني، آسف جداً.

كنت بالنسبة اليه محراراً أو مكشافاً يعكس مدى نجاحه في التأليف. فأنا قارئته الأولى، وهو يعتز برأيي ويؤكد أنه تيقّن مراراً من صحة انطباعاتي بعد اطلاعه على آراء القرّاء والنقّاد.

وترك الفصل الآنـف الذكر انطباعاً عميقاً في نفس نيكولاي نكراسوف، فهو يعتبر مشهد الانتحار "إعجاز فني" ويتلمّس في

الرواية التي أعجبته للغاية "طراوة افتقدناها من زمان حتى عند ليو تولستوي في كتاباته الأخيرة" على حدِّ تعبيره. إلا أنّ لدستويفسكي رأيا آخر في تلك "الكتابات". فقد قال عن رواية "آنا كارينينا" إنها "من عيون الأدب الهامة، وهي أفضل تزكية لنا أمام أوروبا، بل هي تمكّننا أن نبزّ أوروبا". وقال عن ليو تولستوي "إنه فنان بلغ ذروة الإبداع وإنّ أمثاله هم معلّمو المجتمع، معلّمونا، ونحن مجرّد تلاميذ لهم"، أتذكّر أني، في حينها، قهقهت بأعلى صوتي عندما تلا عليّ دستويفسكي حديث الجنرال في "الأبله". وحينما أملى قرار الاتهام على لسان المدّعي العام في "الأخوة كارامازوف" قلت له مازحة:

– يا ليتك كنت مدعياً عاماً! بخطابك هذا تنفي حتى الأبرياء إلى سيبيريا!

– يعني أن خطاب الاتهام جاء موفّقاً؟

– جداً.

وعندما أملى عليّ كلمة محامي الدفاع سألني رأيي فيها فأجبته هذه المرّة أيضاً:

– ليتك كنت محامياً، فبوسعك أن تبيّض صفحة أبشع المجرمين!
وفي بعض الأحيان كنت أكتب بيد وأكفكف دموعي بالأخرى، فيتوقف دستويفسكي عن الإملاء ويقترب منّي صامتاً ويقبّل رأسي بحنان.

نصح الأطباء دستويفسكي أن يكون العلاج في الخارج بعد أن كانت له نتيجة محمودة في العام الفائت. فطلبنا له من جديد جواز سفر في نيسان ١٨٧٩. ولم يكن الأمر، ونحن نقيم في

أرياف فوفغورود، بنفس السهولة التي كنا نحصل بها على الجواز في بطرسبورغ. واجهت مأمور الشرطة في الضاحية لأستفسر عن الإجراءات المطلوبة فاستقبلني بترحاب. لكنه أخرج من الجرار دفتراً سميكاً وقدّمه إليّ. فتحته فانعقد لساني دهشة: "ملف الملازم الثاني المتقاعد فيودور دستويفسكي الخاضع للرقابة السرية والمقيم حالياً في بلدة كذا، وعنوانه كذا..." قرأت صفحات عدّة وقهقهت:

- يبدو أنّك تعرف كلّ شيء عنّا!

- نعم. أعرف كل ما يجري في عائلتكم، ويسرّني أن زوجك حسن السلوك ولم يسبّب لي متاعب حتى الآن!

- هل أبلغه هذا الإطراء؟ سألته ساخرة.

فأجاب بسذاجة:

- نعم، وآمل ألا يخلق لي مشاكل في المستقبل.

عندما أبلغت دستويفسكي بقصة الرقابة ضحك، واكتأب كثيراً، فقد آلمه أنهم يراقبونه حتى الآن رغم ولائه اللامتناهي للقيصر والوطن. وأدركنا حينها سبب تأخير مراسلاتنا. ولم يكن دستويفسكي طلب رسمياً رفع الرقابة عنه، خصوصاً بعد أن أكّد له أشخاص مطلعون أنه لم يعد خاضعاً للرقابة السرية طالما سمحت له السلطات بإصدار مجلته "يوميات كاتب". والحقيقة أن الرقابة لم ترفع إلا عام ١٨٨٠ بأمر من موظف كبير التمسه دستويفسكي(٩). ومهما يكن من أمر فقد

(٩) تفيد مصادر أخرى أن الرقابة التي لاحقت الكاتب أكثر من ربع قرن رفعت عنه في صيف ١٨٧٥ لكنّه لم يعرف بذلك إلا بعد خمس سنين عندما قدم الطلب الذي تشير إليه زوجته آنا دستويفسكي في مذكراتها.

عاش دستويفسكي منذ عام ١٨٥٩ بهوية إقامة وقتية في بطرسبورغ شأن عشرين ألف مشرّد من سكانها مِمّن لا يحملون هوية دائمة. ولم يكن الرجل يمتلك منزلاً خاصاً به. وليس له من الأموال غير المنقولة سوى قطعة أرض مستنقعة في محافظة ريازان خلّفتها خالته لعدد كبير من الورثة ولم يستلم حصته من تلك التركة إلا قبيل وفاته بعامين. وبعد أن رحل عنا إلى جوار ربه تمكّنت أن أشتري المنزل الريفي الذي كنا أمضينا فيه عدة سنين على سبيل الإيجار.

تركنا الريف عائدين إلى العاصمة في الخريف بعد أن رزقت بابني الثاني ألكسي في ١٠ آب ١٨٧٥. وتحسّنت أوضاعنا عموماً خلال عام ١٨٧٦. لم تحدث لزوجي نوبات صرع من زمان، والأطفال في صحة جيدة، وديوننا أخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً، مجلتنا الشهرية "يوميات كاتب" تحقّق نجاحاً. وسّع دستويفسكي اتصالاته وصار يتردّد على محافل علية المجتمع فيحظى بالترحاب وبتقدير رفيع لطيبته وأريحيته فضلاً عن موهبته الأدبية. ومع ذلك كان بعض الأدباء يسيئون إليه ربما بدافع الحسد، واصلنا إصدار المجلة في عام ١٨٧٧، ومع ازدياد نجاحها المعنوي والمادي ازدادت الصعوبات المرتبطة بالتوزيع والاشتراكات والمكاتبات وما إلى ذلك. كما اشتد بدستويفسكي الحنين إلى الأدب الصرف. فقرّر في نهاية ذلك العام أن يوقف المجلة لسنتين أو ثلاث ويعكف على كتابة رواية جديدة. كانت في ذهنه آنذاك أربعة مشاريع لا تكفي عشر سنوات لإنجازها. كان يريد أن يؤلّف رواية عن كانديد الروسي ورواية عن يسوع الناصري ومرثية الأربعين، بالإضافة إلى الشروع بكتابة مذكراته. ولم يتحقّق أي من تلك المشاريع.

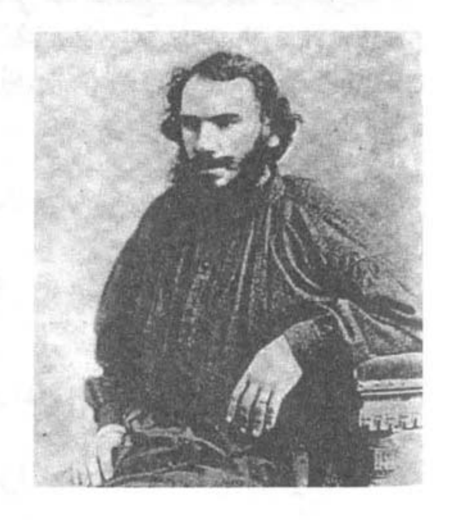
ذات مرّة، في خريف ١٨٧٧، عرج دستويفسكي مع صديق له

على إحدى عرافات العاصمة فتنبّأت له بشهرة عظيمة ومصيبة أليمة. وبالفعل جاءته أثناء مهرجان ١٨٨٠ الأدبي في موسكو شهرة تفوق التصوّر. وفي ١٦ أيار ١٨٧٨ توفي ابننا الأصغر ألكسي. وكان ألم زوجي، وألمي، يفوق التصوّر أيضاً. كان يحب صغيره حباً متميزاً، وكان هاجساً يوحي إليه بقرب الفجيعة. وكان يحزّ في نفسه أن الطفل توفي في نوبة من الصرع الذي ورثه عنه. ولم يخبرني دستويفسكي بالفأل الذي قرأته له العرافة إلا بعد وفاة إبني. تبدّل حالي واختفت بشاشتي المعهودة واستولت عليّ لامبالاة مطلقة. عشت على ذكريات السنوات الثلاث الأخيرة، ذكريات صغيري الفقيد، وتحمّل دستويفسكي المصيبة بصمت جعلني أخشى عليه هو أيضاً. وكان يحاول أن يخفّف أحزاني. وفيما بعد عمد إلى وصف الكثير من أفكاري وشكوكي وآلامي، بل أورد حتى كلماتي بالحرف الواحد، في "الأخوة كارامازوف"، في فصل "المؤمنات"، حيث تعرض أم مفجوعة بوليدها كل ما تعانيه من آلام على شيخ الدين زوسيما.

رأينا تحشداً حول باعة الصحف في شارع نيفسكي الرئيسي. توقفت العربة فشققت طريقي بين الجموع، واشتريت صحيفة فيها ما كان الجميع ينتظرونه من زمان: "بلاغ ١٢ نيسان ١٨٧٧ عن دخول القوات الروسية الأراضي التركية". كان ذلك هو الإعلان الرسمي عن بدء الحرب الروسية العثمانية. قرأ زوجي البلاغ وأمر الحوذي أن يمضي بنا حالا إلى كاتدرائية قازان. كان فيها جمع من المصلين. ذاب دستويفسكي بينهم. وكنت أعرف أنه في المناسبات المشهودة يفضّل الصلاة في ركن منزو هادئ دون أن يراه أحد من معارفه. فتركته وشأنه. وبعد نصف ساعة مضيت إليه فوجدته يبتهل في تأثّر وذهول حتى أنّه لم يعرفني للوهلة الأولى، وفيما بعد ظل يتابع

الأحداث ونتائجها الخطيرة بالنسبة إلى الوطن الحبيب. واحتفظ بالبلاغ المذكور مع الوثائق التي يعتز بها، فهو يعتبر المشاركة في الحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧ - ١٨٧٨ فائحة لأداء "الرسالة التاريخية للأمة الروسية في توحيد البشرية، والشعوب السلافية في المقام الأول، على أساس المحبة والأخوة المسيحية" على حدٍّ تعبيره.

في نهاية ١٨٧٧ كان دستويفسكي في أسوأ حال، إذ أن نيكولاي نكراسوف أحد أوائل الذين اعترفوا بموهبته وساعدوه ليشق طريقه في الوسط الفكري آنذاك قد شارف الموت. كان زاره مراراً أثناء مرضه. وعندما بلغه نبأ وفاته في ٢٧ كانون الأول تأثّر من الصميم وأمضى تلك الليلة يتلو بصوت مسموع أفضل قصائد الشاعر الراحل. فخشيت عليه من الصرع ولازمت مكتبه حتى الصباح، وبعد ثلاثة أيام جئنا للمشاركة في تشييع جثمان نكراسوف. كان في مقبرة دير "نوفوديفيتشيه" حشد غفير أغلبه من الشبّان. وقبل أن ينهال التراب على التابوت في القبر المكشوف ألقى دستويفسكي بصوت متهدِّج كلمة مقتضبة قوم فيها موهبة الفقيد مؤكداً فداحة الخسارة التي تكبّدها الأدب الروسي. ثم نشر في "يوميات كاتب" مقالة مطولة عنه اعتبرها معظم الأدباء أفضل دفاع عن نكراسوف الذي اختلفت فيه الآراء وانقسم حوله النقّاد بين مستحسن ومستهجن. و أعاد له دستويفسكي مكانته



المستحقة في روضة الشعر، فهو في رأيه ثالث شعراء روسيا المجددين بعد بوشكين وليرمنتوف[١٠].

---

(١٠) عندما قتل إليكساندر بوشكين أمير شعراء روسيا في التاسع والعشرين من يناير عام ١٨٣٧ ولد موته حزناً لدى الشعب الروسي الذي أحبه حباً كبيراً، لأنه كتب عن آلامهم ومعاناتهم متغنياً بالحرية وساخراً من الحكم القيصري الظالم. الكتابة عن بوشكين والتأثير الذي أحدثه لا يمكن اختصاره بكلمات قليلة، ويكفي حديث دستويفسكي عن شاعره الأثير وهو يدشن نصب بوشكين التذكاري وهو يقول إن بوشكين يجسد الروح القومية الروسية لأنه أوتي قدرة جبارة على إدراك عبقرية الشعوب الأخرى وعلى فهمها. بالرغم من أن بوشكين لم يعش أكثر من ٣٦ عاماً، فإنه قد ترك الكثير من الآثار الأدبية، لدرجة أنّ قراءه يشعرون أنه قد عمّر كثيراً. اعتبر عصره هو العصر الذهبي للشعر الروسي، وهو عصر التقارب بين الأدب الروسي من جهة والآداب العربية والشرقية من جهة أخرى. وأصبح متسيّداً للشعر بحيث لا مكان لظهور نجوم جديدة.

بعد انتشار خبر وفاته وصل الخبر إلى الشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف الذي اهتز كيانه لفقدان هذا البوشكين. لم يكن هذا الشاعر الذي يعبر في كثير من أشعاره العاطفية عن الإحباط الشديد والتبرم بالحياة في روسيا وكان يحلم في شعره بفردوس بعيد المنال، ذا شهرة كبيرة أو تأثير كبير، فبوشكين متسيد للشعر، ولا مكان لوجوه أخرى تفرض نفسها في هذا المجتمع. كتب بعد أن وصل إليه خبر مقتل بوشكين "قصيدة مقتل شاعر" التي جعلته مشهوراً على الفور. تلك القصيدة أعطت المجد إلى ليرمنتوف، وأورثته إمارة الشعر، والشقاء الإنساني الذي انتهى بمثل النهاية التراجيدية المعروفة:

مات الشاعر!
سقط شهيداً
أسيراً للشرف
الرصاص في صدره يصرخ للانتقام
والرأس الشامخ انحنى في النهاية
مات!
فاضت روحه بالآلام من الافتراءات الحقيرة
حتى الانفجار..
وقف وحيداً في المواجهة وها قد قتل!



قتل!
فكل نواح الآن عقيم
وفارغة تراتل الإطراء
وهمهمات الأسى الكسيح
ونحن نحملق في إرادة الموت!
وبعد – فهل أنتم أبرياء
يا من حاصرتم في قسوة
موهبته الحرة الشجاعة؟
يا من نفختم في اللهب الخامد
حتى فورة الغضب المفاجئ
فلتبتهجوا إذن
فلقد كان صفاء الألم فوق طاقة الاحتمال
واشهدوا الآن
إنّ قنديل العبقرية انطفأ
وإكليل الغار على جبهته يذوي
لم يعرف القاتل التردّد
وهو يصوّب في برود...
لا طلقة واحدة أخطأت القلب
ولا وحي منقذ أرعشِ البندقية في اليد الوحشية
كيف استطاع هذا اللّاجئ الوضيع الانتهازي
الأداة الخسيسة العمياء،
أن يحتقر أرضنا هكذا
ويسخر، في عجرفته، من لغتها وتقاليدها الأصلية
ولا يستثني مفخرتها الكبرى
فيتمهّل ليتساءل ضد من رفع يده!
قتل
مات وارتحل
مثل ذلكِ الشاعر الرقِيق القلب المغمور
والذي أنشدت فيه قصائد رائعة
من مثله بِيَدٍ قاسية خربَة

سقط ضحية الغرة العمياء
لماذا غادر صداقَاته وتأمُّلاته الآمنة
إلى عالم من الحسد الخانق
لقلب عشق الحرية واشتعل بالحب؟
لماذا أسلم يديه لوشاة التافهين؟
لماذا استسلم للكلمات الكاذبة والابتسامات المخادعة؟
وهو من كان
منذ الشباب قادراً على اكتشاف حقيقة الناس
لقد سلبوه تاجه وتوّجوه بالشوك
ليمزق الشوك الخبئ
جبهة الشاعر النبيلة
وكانت لحظاته الأخيرة
مسمّمة بالشائعات والهمس البذئ
وها قد مات
بالعطش العبثي إلى الانتقام
معذبا بالآمال المحطمة التي تتهاوى سريعاً
لن تتردد الأغنيات الرائعة من جديد
فالصوت النبيل يخلد للصمت
في الحجرة الصغيرة دون باب
وآه، أغلقت الشفتان
أمّا أنتم أيتها السلالة المتعجرفة
يا أبناء من اشتهروا بمخازيهم الوضعية
يا من بقدم ذلَليّة قد دستم
بقايا عائلأت نبيلة تجهّم لها الحظ!
يا من تحيطون بالعرش في قطعان شرهة
كالجلادين الذين يخفون نواياهم الحقيرة
في أثواب العدالة، متظاهرين بالبراءة
من أجل ذبح الحرية والمجد والعبقرية!
هناك حكم الرّب
حكم رهيب ينتظر

لا يميل مع الذهب
وأمام العرش الإلهي
لن تنقذوا جلودكم بقذف الأوحال،
ولن تستطيع كلّ دمائكم القذرة
أن تعوّض أبداً الدم العادل للشاعر.

في هذه القصيدة هاجم ليرمنتوف بقسوة موقف الموظّفين الكبار في البلاط القيصري، الذين تبادلوا النكات من بوشكين وسخروا منه. وأشاد بعظمة الشاعر الراحل وتبيان الدور العبقري لهذا الرجل في الحياة الروسية، ووصف مهاجميه وأعداءه بأنهم مجموعة من عشاق الفساد، خانقوا الحرية والعبقرية والعظمة. انتشرت هذه القصيدة بين أرجاء الشعب على وجه لا يصدق، فتلقّفها الجميع، وأصبحوا يردّدونها كترنيمة مسيحيّة تذكّر بعبقري قدّم للأمّة الشيء الكثير. تلقّفت القصيدة إحدى السيدات من البلاط القيصري، فأرسلت نسخة من هذه القصيدة إلى القيصر قائلة: ها هنا دعوة إلى الثورة!

ويغضب القيصر نقولا من هذه القصيدة وشاعرها، فيأمر بالقبض على هذا الشاعر، ميخائيل ليرمنتوف، الضابط ذو الثالثة والعشرين من العمر، وأحد فرسان الحرس الإمبراطوري. وتكون نتيجة القبض عليه النفي الأول، وإنزال رتبته، وإرساله إلى إحدى كتائب المشاة في القوقاز حيث كان الروس في حالة حرب مع الثوار القوقاز. عندما رحل ليرمنتوف إلى هناك كان اسمه قد أصبح معروفاً لدى العامة، وأصبح نفيه الأول بداية حياته كشاعر. ثم أن القدر لم يمنحه بعد ذلك إلا فرصة وجيزة للغاية، فلم يمهله الموت سوى أربع سنوات فقط بعد موت بوشكين، ليلتحق به وهو في أوج العطاء الإبداعي عن سن لم تتجاوز السابعة والعشرين.

لا يمكن وصف شخصية ليرمنتوف إلا بالاندفاع ومعاداة القصر والطبقة العليا. بعد نفيه الأوّل تشاجر مع ابن السفير الفرنسي في روسيا على سيدة جميلة، ثم تحداه إلى المبارزة، ووصلت الحادثة إلى القيصر، فألقى القبض عليه ونفاه مرّة أخرى إلى القوقاز، وأهان دوقة من الدوقات ليعلن عن معاداته الصريحة للقصر. كان القيصر الروسي نيقولا يكرهه كراهية شخصية. فأي مصير أسود ينتظر شاعر كهذا؟ وكانت الإجابة في يوليو عام ١٨٤١م، إذ تنازع مع صديقه مارتينوف، حيث كان الاثنان يتودّدان إلى نفس الفتاة، وقتل في المبارزة بحد السيف كما قتل من قبل بوشكين بحدّ السيف، وكأن قدر روسيا أن يموت أعظم شاعرين بها بحدّ السيف وبسبب امرأة ما!

في مطلع ١٨٧٨ ألقى الفيلسوف اللّامع فلاديمير سولوفيوف، وكان في مقتبل العمر، سلسلة محاضرات عامة في الفلسفة حظيت بإقبال منقطع النظير. وكنت حضرتها مع دستويفسكي. في أثناء إحدى المحاضرات لاحظنا أن صديقنا نيكولاي ستراخوف قابلنا بجفاف خلال الفرصة واختفى بلمح البصر على غير عادته. وعندما ذكرته بموعد الأحد، فهو يتناول طعام الغداء عندنا في الآحاد، التفت إلينا وأجاب: طبعاً، أنا ضيفكم الدائم. وعلى الغداء بعد أيام سألناه عن تصرفه الغريب ذاك وعن سبب زعله علينا فاجاب ضاحكا:

– أعوذ بالله! كيف أزعل عليكما؟ كل ما في الأمر أني جئت حينها برفقة الكونت ليو تولستوي وقد اشترط علي ألّا أعرّفه على أحد من الحضور، مما جعلني أتحاشى الجميع.

– عجيب! كان معك تولستوي؟! – هتف دستويفسكي مبهوتاً – مع الأسف أني لم أقابله.

طبيعي أني ما كنت سأفرض عليه تعارفاً لا يرغب فيه. ولكن لِمَ لم تهمس في أذني أنك معه؟ كان بودي أن ألقي ولو نظرة خاطفة عليه.

– أنت تعرفه من صوره – واصل ستراخوف ضحكته.

– ما قيمة الصور؟ وهل تُغني عن المقابلة الشخصية؟ لن أغفر لك هذه الفعلة يا نيكولاي.

وظل دستويفسكي آسفاً على تلك الفرصة المضيعة. أما أنا فقد التقيت الكونت ليو تولستوي مرّة واحدة في موسكو عام ١٩٠٢ وكان لي معه حديث. قبلها تعرّفت على عقيلته الكونتيسة صوفيا أندرييفنا والتقيتها مراراً منذ عام ١٨٨٥. فهي تزورني عندما تصل إلى بطرسبورغ ونتشاور في أمور الطباعة والنشر خصوصاً. وأعرج عليها كلما زرت موسكو. ولم يصادف أن وجدت الكاتب الكبير في

البيت، كونه يقيم أساساً في ضيعته بضاحية "ياسنايا بوليانا". وحالفني الحظ بعد سنتين، فوجدته ذات مرة. كان متوعكاً بعد نوبة التهاب الكبد. استقبلني، مع ذلك، أحرّ استقبال. ودار الحديث بالطبع عن المرحوم زوجي. وقال تولستوي أنه سيظل يشعر بالأسف الشديد لأنه لم يتعرّف على دستويفسكي. وعندما ذكّرته بمحاضرة سولوفيوف استغرب وأناح باللائمة على مرافقه الذي لم يخبره. وأضاف: كان دستويفسكي عزيزاً عليّ. ولعلّه كان الكاتب الوحيد الذي يمكنني أن أسأله الكثير ويمكنه أن يرد بالكثير.

بعد وفاة ابننا الأصغر ألكسي كاد دستويفسكي يقضي غمّاً وكمداً. فنصحته بالسفر إلى "خلوة النساك" بمقاطعة كالوغا في أواسط روسيا، ذلك الدير المنعزل الذي غدا محجة للمفكّرين والأدباء وسواهم من ذوي المشاعر المرهفة والنفوس القلقة التي تنشد السلوى والهدوء والطمأنينة في رحاب الإيمان، وتنهل من منابع الحكمة على يد شيخ الدين. وكان بين المشاهير الذين زاروا الدير القائم منذ القرن الرابع عشر نقولاي غوغول وليو تولستوي ونقولاي ليسكون وايفان تورغينيف، كان دستويفسكي متردداً في الرحيل إلى الدير لوحده رغم رغبته القديمة في رؤيته. وتمكنت أن أقنع فلاديمير سولوفيوف(١١) الذي كان ينوي السفر إلى هناك في ذلك الصيف أن يصطحب

---

(١١) ولد الشاعر الفيلسوف فلاديمير سيرجيفتش سولوفيوف عام ١٨٥٣ وتوفي عام ١٩٠٠ عن سبع وأربعين سنة من العمر. تعددت دراسات فلاديمير بين العلم والآداب واللاهوت والفلسفة. التحق بجامعة موسكو وتلقى فيها دروساً في الرياضيات والطبيعة كما درس التاريخ وعلوم اللغة والآداب ودرس اللاهوت والفلسفة في أكاديمية موسكو الدينية واهتم بالمعتقدات الإنسانية وقدم فيها أبحاثاً مهمة جلبت له شهرة واسعة وحدد هدفه في الحياة بمساعدة البشرية على الجمع بين المادي والمثالي عمد مدرساً بجامعة موسكو وعمره عشرين عاماً وحصل على الماجستير في أزمة الفلسفة الغربية ووصل إلى منصب رئيس كرسي الفلسفة.

زوجي. ومع أنني أعتبر هذا الرجل الهائم في أجواء الفلسفة واحداً "من أهل الله" إلا أنني كنت متأكدة أنه سيسهر على دستويفسكي فيما لو أصابته نوبة صرع في الطريق الطويل.

في أواخر حزيران ١٨٧٨ ارتحلا. عاد دستويفسكي من "خلوة النساك" أكثر هدوءاً واطمئناناً بعد أن التقى شيخ الدين مع الرعية مرّة، ثم اختلى به مرّتين في حديث صادق كان له وقع عميق في نفسه. وفيما بعد أورد دستويفسكي مواضع من هذا الحديث في الجزء السابع من "الأخوة كارامازوف"، وأشاد في وصف شخصية شيخ الدين ومعتكفه وصومعته كما رآه بأم العين، عدنا من الريف إلى بطرسبورغ في الخريف كالعادة، واستأجرنا شقة جديدة بدلاً من الشقة التي يذكرنا كل شيء فيها بفجيعتنا بابننا. وأمضى دستويفسكي في الشقة الجديدة بقية حياته حتى توفي بعد عامين، لم يفارقنا الحزن شتاء، لكن الأمور سارت على منوالها حسب الظاهر. واصل دستويفسكي العمل في "الأخوة كارامازوف" حتى تمكّن من إنجاز الوجبة الأولى بحوالي مائتي صفحة نشرت في مجلة "البشير الروسي" عدد كانون الثاني ١٨٧٩.

مرّت الشهور الأولى من عام ١٨٧٩ بهدوء. واستمر دستويفسكي بكتابة روايته، وشارك في أمسيات أدبية خيرية عديدة، فكان يلقي فصولاً من مؤلّفاته، وخصوصاً الرواية الجديدة "الأخوة كارامازوف"، ويستقبله الجمهور بمنتهى الحفاوة والتكريم. رافقته في كل تلك الأمسيات الممتعة وساعدته على قدر المستطاع حتى قال لي مرّة "أنت حامل سلاحي". وبالفعل كنت أحمل الكتاب الذي يتلو مقتطفات منه وآخذ معي أقراص السعال ومنديلاً إضافياً وبطانية ألفّ بها كتفيه وعنقه كيلا يصاب بالبرد في الطريق، وما إلى ذلك من

الحاجيات التي جعلته محقاً في قوله. لكنّ المؤسف أنّ الغيرة عاودت دستويفسكي مراراً في تلك الأمسيات فعكّرت الجو عليّ وعليه.

وفي الربيع انتقلنا إلى الريف كالعادة. وكان البروفيسور كوشلاكوف أصرّ على زوجي أن يسافر إلى ألمانيا للعلاج بالحمامات بعد انقطاع دام ثلاث سنوات. وعندما حلّ الصيف ارتحل دستويفسكي إلى مدينة ايمس وتوجّه مباشرةً إلى طبيب هناك. فوعده هذا الأخير بأن "مياه كرينهين المعدنية ستعيده إلى الحياة". وكتب لي زوجي يقول: "فحصني الدكتور أورت فوجد أن جزءاً من الرئة غيّر موضعه وكذلك القلب تزحزح من مكانه المعتاد وهو الآن في موضع أبعد. كل ذلك بسبب الانتفاخ الرئوي. إلّا أنّ القلب سليم تماماً، ولا يشكل تبدّل الموضع خطراً يُذكر كما يقول الطبيب. وهو ملزم بالطبع أن يهدّئ من روع المريض. ولكن إذا كان الانتفاخ وهو في طوره الأول قد فعل هذا كلّه فماذا ينتظر منه فيما بعد؟ على كل حال، أملي كبير في المياه المعدنية".

أفزعني رأي الطبيب الألماني. فقد كنت في السنوات الأخيرة أرى زوجي في أحسن حال، ولم أتوقّع أن المرض يسري في بدنه على هذا النحو. علّقت آمالي أنا أيضاً على مياه كرينهين، فقد أسعفته كثيراً فيما مضى. وكنت أتمنى أن يجد دستويفسكي في ايمس من يبدّد وحدته، لكنّه مع الأسف لم يجد أحداً من معارفنا طوال الأسابيع الخمسة التي أمضاها هناك. وكتب إليّ أنه يعاني من الوحدة القاتلة والصمت: "تلك ليست مجرّد وحدة، إنها صمت أخرس، حتى أني أكلّم نفسي أحياناً كالمجنون... فقدت قابلية النطق، ومنذ أربعة أسابيع لم أسمع صوتي. وأفكر في الموت طول الوقت".

بدأ عام ١٨٨٠ بافتتاح "مؤسسة دستويفسكي" للتوزيع بالمراسلة.

كانت أحوالنا المالية متردية رغم نجاحنا في تسديد الديون التي لاحقت زوجي منذ الستينات. وما دفعنا لفتح المؤسسة التجارية لتسويق المطبوعات هو تدهور صحة دستويفسكي واستفحال الانتفاخ الرئوي وخوفنا أن يعجز قريباً عن الكتابة، ففكرنا في توفير بعض المال لليوم الأسود، تحمّست للمشروع كثيراً، لكنّي كنت واثقة أن النجاح لن يكتب له إلا بتسجيل المؤسسة باسم "فيودور دستويفسكي" ممّا حوله رسمياً إلى "تاجر" ووفّر لخصومه حجة إضافية للنيل منه على صفحات الجرائد متصوّرين بسذاجة أنه يشارك فعلاً في نشاط هذه المؤسسة المتواضعة التي أغلقت أبوابها بعد شهرين من وفاته.

وعلى العموم لم يكن لدينا في بداية هذا العام ما يبرّر الشكوى. فإنّ صحة دستويفسكي في أعقاب علاجات الصيف الفائت تحسّنت على ما يبدو، كما تضاءلت نوبات الصرع. وطفلانا في صحة موفورة. و"الأخوة كارامازوف" تحقق نجاحاً كبيراً. ومؤسستنا التجارية بدأت خطوات موفّقة ومطبوعاتنا تحظى بإقبال واسع. كلّ ذلك جعل دستويفسكي في أحسن حال. ورغم انشغاله في كتابة المتبقي من روايته كان يزور أصدقاءه ويتردّد على الصالونات الأدبية ويلتقي مشاهير عصره من العلماء ورجالات المجتمع وسيداته. وقد حضر مناقشة رسالة الدكتوراه التي تقدّم بها الفيلسوف فلاديمير سولوفيوف إلى جامعة سان بطرسبورغ في "نقد المبادئ التجريدية" وشارك في أمسيات أدبية كثيرة. وكان كما أسلفت يستأسر المستمعين ببراعته وتعبيريته، رغم صوته الرفيع الواهن، وببساطته وعدم تقيّده بأساليب فن الخطابة، حتى أنّه عندما تلا مقطعاً من "الجريمة والعقاب" - حلم راسكولنيكوف حول الحصان القتيل - رأيت الحاضرين مخطوفين وقد ارتسم الرعب على وجوههم، والبعض يبكون، ولم أتمكّن أنا

نفسي أن أحبس دموعي[١٢]. ولم يكن دستويفسكي يقتصر على تلاوة مؤلفاته، فهو يقرأ في تلك الأمسيات والندوات مقتطفات من غوغول وبوشكين وغيرهما. وأذكر أنّ الجدران كادت تهتزّ من التصفيق بعد أن ألقى دوستويفسكي قصيدة "النبي" –.

في ٢٦ أيار ١٨٨٠ كان سيصار إلى إحياء أضخم مهرجان تشهده روسيا لتكريم ذكرى أمير شعرائها ألكسندر بوشكين[١٣]. وتلقى

---

(١٢) القارئ لهذا الجزء بالتحديد من رواية الجريمة والعقاب – حلم راسكولنيكوف حول الحصان القتيل – لن يستغرب بكاء الحضور وهم يسمعون القصة من فم دستويفسكي. هذا المقطع لا ينسى في الرواية، وهو من المشاهد المفزعة والمثيرة بلا شك. لم تنتابني رغبة في البكاء، لكن بحق، أثارتني الصورة المرعبة لوصف الحصان القتيل، كان الوصف آية من آيات التصوير الفني. وفهمت جيداً كيف يكون الإنسان شيطاناً وجباناً كما يقول رازوميخين في حالة السكر. هذا المقطع مثير جداً وأعدت قراءته مرتين لجمال تصويره الفني.

(١٣) حشدت لهذا الحفل إمكانيات ضخمة بغية أن يكون أكبر تجمع للمثقفين الروس منذ فترة طويلة. منذ البداية لاح في الأفق شبح الصدام بين التيارين الأساسيين اللذين كانا يهيمنان على البلاد: تيار القوميين السلافيين الذين يركزون على الأصالة الروسية، وتيار المستغربين الذين يريدون اللحاق بالغرب بأي شكل. وكان يتوقع حضور الأقطاب الكبار للأدب الروسي وفي طليعتهم الثلاثي المقدس: تورغينييف، تولستوي، دستيوفسكي. لهذا السبب قدم تورغينييف من فرنسا، حيث يقيم، إلى روسيا، وذهب مباشرة إلى تولستوي لكي يقنعه بحضور هذا الاحتفال الذي لا يمكن أن يكتمل بدونه. ومنذ البداية سأله تولستوي: هل سيحضر دستويفسكي؟ فأجابه: أعتقد ذلك. فقال له: لن أحضر. ولماذا؟ لأنه سيسيطر على الجو، وسيتحول الحفل من تكريم بوشكين إلى تكريس لدستيوفسكي.

كان السؤال الأساسي المطروح على الاحتفال هو التالي: ما هو بوشكين بالنسبة للأدب الروسي؟ ما مكانته، ودلالته، ومغزاه؟ ثم بشكل أخص: هل يجسد في شخصه العبقرية الروسية أم العبقرية الأوروبية، ناهيك عن الكونية؟ كان طلاب جامعة موسكو والعديد من الحضور الهائل، ينتظرون من أدبائهم الكبار جواباً عن هذا السؤال. في البداية أعطي حق الكلام لتورجينييف الذي كان قد عرف بوشكين

في حياته، ويعتبر نفسه أحد تلامذته والمعجبين به، لكن خطابه كان معتدلاً ورزيناً جداً.

لم تشبع أقوال تورغينيف جمهور روسيا، فقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر، تحليلاً أعمق بمكانة بوشكين. ولهذا راحوا ينتظرون وقائع اليوم التالي للمؤتمر، حيث ينتظر أن يصعد دستويفسكي على المنصة.

وفجأة، ظهر على المنصة شخص غريب الشكل يكاد جسده النحيل المتهدم يتهاوى من شدة الإعياء والتوتر وسنوات الحرمان الطويلة. وبدا وكأن لباسه هو الذي يحمله، ويجعله يتوازن، وليس هو الذي يحمل لباسه. كان وجهه الأصفر وعيناه الغائرتان ولحيته الكثيفة تخلع عليه هيئة أولئك الممسوسين الذين طالما تحدث عنهم في رواياته. أخذ يتكلم بصوت أجش مبحوح لا يكاد يسمع في البداية. ثم شيئاً فشيئاً راح الصوت يتضح ويقوى حتى سيطر على القاعة كليا. تجمع جمهور ضخم وخيم على الجميع صمت رهيب. وأخذ العصاب الجنوني يؤجج في داخله نار العبقرية، فراح يكسف الخطباء جميعاً كما تكسف الشمس النجوم الصغيرة في وضح النهار. ما الذي قال دستويفسكي في هذا الخطاب الشهير، الذي توج حياته الأدبية والذي يعتبر بمثابة الوصية التي تركها للأجيال القادمة؟

قال بما معناه: من هو بوشكين؟ إنه تجسيد للروح القومية الروسية في كل ما تمثله من قدرة على هضم واستيعاب عبقريات الأمم الأخرى. إنه تعبير عن روسيا فيما تحمله من رسالة كونية إلى البشرية. وروسيا هذه التي طالما تغنى بها كانت ولا تزال مسؤولة عن قيادة العالم على درب التقدم الأخلاقي. وهو لا يقل أهمية بالنسبة لنا عن شكسبير بالنسبة للإنجليز، فالشخصيات الإيطالية التي يستخدمها شكسبير في مسرحياته تتحدث وكأنها إنجليزية. وهذه هي سمة العبقرية: فهي تصهر وتهضم عندما تنقل عن الآخرين. وبالتالي فلا يعود النقل خيانة للذات القومية. وهذا ما فعله بوشكين أيضاً، فقد كان إسبانياً في كتابه دون جوان، وإنجليزياً في كتابه عيد أثناء الطاعون، وألمانياً في كتابه مقطع من فاوست، وعربياً في كتابه التأثر بالقرآن الكريم، وروسياً في كتابه بوريس غودونوف، كان كل ذلك دفعة واحدة. ولأنه كان كل ذلك، لأنه عرف أن يكون كل ذلك، فإنه روسي حقيقي، لا معنى للإنسان الروسي إن لم يكن أوروبياً وعالمياً في آن معاً، كأن تكون روسياً حقيقياً، أن تكون روسياً بالكامل يعني أن تكون أخاً لكل البشر!".

ما أن انتهى دستويفسكي من كلامه، حتى دخل الجمهور في حالة هستيرية. التصفيق المتطاول الذي لا ينتهي كان يختلط بشهقات الزفير والنحيب، وزغردات

دستويفسكي، شأن سائر كبار الأدباء والمفكرين، دعوة للمشاركة بكلمة في الإحتفالات التي ستقام في موسكو، عكف دستويفسكي على إعداد كلمته. واهتم كثيراً بالأقاويل المتعارضة التي شاعت في العاصمة بطرسبورغ بصدد مضامين الخطب التي سيلقيها في المهرجان ممثلو جناحي الفكر الروسي: القوميون المتقيّدون بالنزعة السلاڤية والعصريون الموالون للغرب. وكان دستويفسكي، وهو من الفريق الأول، يريد أن يضمن خطابه عن بوشكين كل ما أثقل صدره خلال هذه السنين من أفكار بخصوص رسالة الأمة الروسية الأرثوذكسية المؤمنة، كان في نيّتنا أن نرتحل إلى موسكو مع طفلينا. فإن أبقيناهما مع المربية سيشتد قلقي عليهما، وإن تركت زوجي يسافر لوحده سيشتد قلقي عليه. إلا أن القرار جاء بعد أن أفزعتنا كلفة السفر والإقامة طوال فترة المهرجان. فرحل دستويفسكي لوحده.

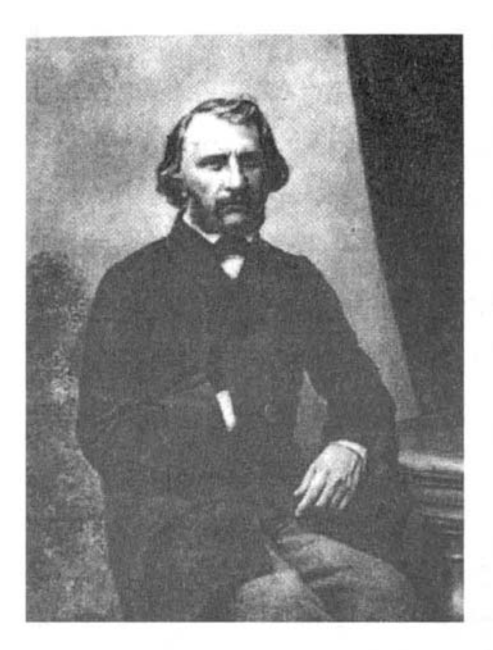
تأجل افتتاح المهرجان بسبب وفاة الإمبراطورة الأم. وبدلاً من أسبوع أمضى دستويفسكي في موسكو ٢٢ يوماً كنت خلالها كمن يتقلّب على الجمر مع أن رسائله تتوارد عليّ كل يوم. وسبب مخاوفي وعذابي أن الطبيب الروسي الذي فحص دستويفسكي قبلها أفضى إلي سراً أن المرض اللعين استفحل في الآونة الأخيرة وأن الإنتفاخ الرئوي في حالته الراهنة يشكل خطرا على حياة زوجي. فالشرايين في

النساء كانت تختلط ببكاء الرجال. والطلاب هجموا عليه على المنصة لكي يلمسوه، والطالبات أخذن بتقبيل يديه كيفما اتفق، وسقط أحد الطلاب على قدميه مغمياً عليه، وراح المتخاصمين من سلافيين ومستغربين يتعانقون بعد أن نجح دستويفسكي في مصالحة شطري روسيا. وحتى تورجينييف هجم عليه لكي يعانقه مستسلماً أمام عبقريته التي لا تقاوم.. وأما تولستوي الذي رفض الحضور بإصرار، فقد صدقت توقعاته، والواقع أنه ما كان سهلاً عليه أن يشهد كل هذا التبجيل لمنافسه الأوحد على عرش الآداب الروسية.



الرئتين غدت رقيقة هشة ويمكن أن تتمزّق وتنفجر لأية حركة مفاجئة أو أية انفعالات شديدة، سواء محزنة أم سارة لا فرق. ثم أني كنت أخشى عليه من نوبة الصرع المزدوجة التي لم تداهمه من فترة، ويتوقع أن تصيبه الآن، وإذا حدثت له في الفندق سيقوم، كعادته بعدها، قبل أن تزول الغشاوة عنه ويأخذ في البحث عني هناك من دون أن يدرك بأني بعيدة، وسيعتبرونه مجنوناً ويزجّون به في مصحّ الأمراض العقلية. إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث والحمد لله.

في ٦ حزيران ١٨٨٠ أزيح الستار عن تمثال بوشكين في قلب روسيا. وألقى دستويفسكي كلمته الشهيرة في اختتام المهرجان، في يومه الرابع. وعاد إلى الفندق متعباً وفرحاً لاستقبال جمهور موسكو الممتن الذي كرّمه بإكليل ضخم من الغار، أخذ قسطاً من الراحة. وفي ساعة متأخرة من الليل مضى إلى تمثال بوشكين مجدداً. توقّفت عربته في الساحة الخالية ونزل منها يحمل إكليله الثقيل، وضعه عند قاعدة معلّمه العظيم "وركع أمامه ثم سجد حتى لامس الأرض، – ومن المعروف أن بعضاً من كبار الكتّاب الروس، ومنهم ليو تولستوي، قاطعوا مهرجان بوشكين احتجاجاً على الصراعات السياسية التي رافقته. وقال سالتيكوف شيدرين في تبرير غيابه: "كاد العاقل



والمجنون، تورغينيف[١٤] ودستويفسكي، أن ينتزعا أمجاد بوشكين ويقتسما ثمرة مهرجانه"-.

عاد دستويفسكي إلى بطرسبورغ فرحاً سعيداً. إلا أن الفرحة لم تدم طويلاً. فبعد نشر خطابه عن بوشكين تجنّت عليه الصحف والمجلات ورمته بوابل من الانتقادات والتّهم والافتراءات بل وحتى الشتائم المقذعة بسبب ما ورد في ذلك الخطاب. اعترض

---

(١٤) ايفان سيرغيفيتش تورغينيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) واحداً من أهم كتاب الواقعية في الأدب العالمي. منذ أن نشر قصصه الأولى قال عنه الناقد الروسي الكبير بيلنسكي: إن تورغينيف سيصبح كاتب روسيا المبدع في المستقبل.
نشر روايته رودين وبعدها رواية آسيا عام ١٨٥٨، ورواية بيت النبلاء عام ١٨٥٩، ولعل روايته الشهيرة آباء وبنون عام ١٨٦٢ التي أهداها إلى ذكرى بيلنسكي تعتبر من أهم أعماله الروائية على الإطلاق والتي حققت له شهرة عالمية. فقد قال عنها تشيخوف: أية رواية عظيمة هذه.
في سنوات العشرين الأخيرة عاش تورغينيف في الغربة فسافر أولاً إلى بادن بادن ثم ذهب إلى باريس حيث تعرف على مجموعة من الأدباء والمفكرين أمثال فلوبير، دودي، اميل زولا، الإخوة غونكور، غي دي موباسان. هؤلاء جميعاً وجدوا في تورغينيف واحداً من أهم كتاب الواقعية في الأدب العالمي. فقد اعتبره موباستان معلمه الأول. وكان كل من هوغو وتورغينيف قد أصبحا من كبار كتاب اتحاد الأدباء العالمي الذي عقد في باريس عام ١٨٧٨.

المعترضون هذه المرّة على فكرة دستويفسكي القائلة بأنّ الأمّة الروسية أمّة متنوّرة تجاوزت التخلّف بتبنّيها تعاليم المسيح، وزعموا أن هذه الأمّة جاهلة ولن تقوم لها قائمة ما لم تُعالج بحقنات حضارية من الغرب. رد دستويفسكي على تلك التهجّمات جملة وتفصيلاً في مقال نشره في العدد الوحيد والأخير من مجلته "يوميات كاتب" لعام ١٨٨٠. وأثار المقال ضجة صاخبة في الوسط الأدبي أعادت الأمور إلى نصابها في تقويم بوشكين والأمّة الروسية حضارياً وفي رد الإعتبار لدستويفسكي نفسه، هدأ روع زوجي بعض الشيء فعاد يواصل كتابة "الأخوة كارامازوف". كان عليه أن ينهي الجزء الرابع بأكمله حتى فرغ منه بحلول تشرين الأوّل ١٨٨٠. وفي مطلع كانون الأول أصدرنا طبعة مستقلة من الرواية بثلاثة آلاف نسخة نفدت في أيام معدودات. فما أعظم فرحة دستويفسكي بهذا النجاح! إنه آخر حدث سار في حياته المشحونة بالمنغصات والآلام.

لم يعد ثمّة موجب للجهاد بعد أن أفلحنا في تسديد ديوننا وصارت مجلة "البشير" مدينة لنا بحوالى خمسة آلاف روبل. إلا أن دستويفسكي لا يجد سبيلاً للراحة. فهو يعدّ العدة لإصدار مجلّته "يوميات كاتب" عامين آخرين. وينوي كتابة روايته الثانية عن الأخوة كارامازوف، على أن تأتي بنفس الأبطال تقريباً بعد عشرين عاماً من أحداث الرواية الأولى، وتغدو أعمق منها وأشد إثارة، أمضى الأسبوعين الأولين من كانون الثاني ١٨٨١ في أحسن حال، ولم تقع له نوبات صرع من ثلاثة شهور. فتصوّرنا أنّ الشتاء سيمرّ بسلام، زارنا كثيرون يوم الأحد ٢٥ كانون الثاني زوجي في صحة جيدة. وليس هناك إطلاقاً ما يشير إلى ما سيحدث بعد ساعات.

استيقظ دستويفسكي في اليوم التالي كعادته ظهراً وأخبرني أن

نزيفاً طفيفاً حدث له في الليل. تدحرجت المحبرة تحت خزانة الكتب فاضطر أن يزحزحها من مكانها فنزف الدم من فمه. ولقلّة ما نزف من دم لم يقلق كثيراً ولم يوقظني ساعتها. وفي النهار كان هادئاً يمزح مع طفليه. إلا أن الدم سال من جديد شريطاً رفيعاً على لحيته في حوالى الخامسة. فصرخت في هلع رهيب. وعندما وصل الطبيب بعد ذلك وفحصه وصار الدم يسيل بغزارة وأغمي على دستويفسكي، غير أن الدكتور أكّد أن لا خطر على حياته وقال إن الدم سيتخثر في الشريان الرئوي المنفجر ويسد الثغرة، لا سيما وأنّ ما نزف منه في المرات الثلاث لا يتجاوز قدحين. توقف النزيف فعلاً نهار ٢٦ كانون الثاني[١٥]. ومع ذلك لم يغمض لدستويفسكي جفن خلال الليل، طلب مني أن أحضر الإنجيل وأشعل شمعة وقال: "سأموت اليوم". فتح لي الإنجيل على صفحات اختارها عشوائياً وأعطاني اياه فقرأت فيه: "وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وأتيا عليه" - "متى"، الإصحاح ٣: ١٣ - ١٧ - كرّر دستويفسكي مما قرأت "وإذا السموات قد انفتحت له" وأضاف: "ألم أقل لك يا حبيبتي إني سأموت اليوم؟".

وفي التاسعة من صباح ٢٧ غفا بهدوء ويدي في يده. إلا أن النزيف أيقظه في الحادية عشرة. والمنزل يغص بالحاضرين في انتظار عودة الطبيب الذي وصل في حوالي السابعة مساء. آنذاك انتفض

---

(١٥) أفادت آنا غريغور، زوجة الكاتب، أن رجلاً ثقيلاً، تحفظت عن ذكر اسمه، زارهم في ٢٦ كانون الثاني ودار بينه وبين دستويفسكي نقاش حاد في موضوع فكري، إلا أن ابنتهما لوبوف فودوروفنا كتبت في مذكراتها المنشورة بالألمانية أن شقيقة دستوفسكي زارتهم في ذلك اليوم وحدثت بينها وبينه مشادة حول تركة خالتها انفتح بعدها النزيف الذي أودى بحياة الروائي الكبير".

دستويفسكي فجأة دون سبب واضح ورفع رأسه فشحب الدم على وجهه من جديد. ولم تسعفه مكعبات الجليد. أغمي عليه وشعرت أن النبض يكاد يضيع... وفي الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين أسلم الروح.

في الأول من شباط ١٨٨١ شُيّع جثمان فيودور دستويفسكي إلى مثواه الأخير في موكب عفوي مهيب لم تشهد بطرسبورغ مثله إلا في مقتل الإمبراطور ألكسندر الثاني بعد شهر من ذلك التاريخ!

انتهى.



تقدّم آنا غريغوريفنا في مذكراتها فكرة وافية عن دستويفسكي الإنسان، وكيف أنهما عاشا حياة صعبة مليئة بالأحداث والصعوبات ورغم ذلك عاشا حياة مليئة بالمشاعر النبيلة والعميقة. كما تتحدَث عن مشاريع دستويفسكي الروائية وأسفاره خارج روسيا، وتعرض لعلاقته بأدباء عصره ونقّاده ومنهم تورغينيف وتولستوي وبيلينسكي وبوشكين، وصولاً إلى اللحظات الأخيرة في حياته.


ISBN 284306233-0

9 782843 062339